كتب دائرة المعارف الإسلامية

(٣)

البدو

بقلم

مونكومري وات

W. Montgoumery Watt

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

...هيم خورشيد • د. عبد الحميد يونس • حسن عثمان

دار الكتاب اللبناني بيروت

البدو





بقلم

مونكومري وات

W. Montgoumery Watt

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

ابراهيم خورشيد • د. عبد الحميد يونس • حسن عثمان

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبان)
تلفون ٢٥٧٤٧٠ ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الاولى
١٩٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وهذا هو الكتاب الثالث من سلسلة كتب دائرة المعارف الاسلامية ، كتبه عدد من أعلام المستشرقين فتناولوا فيه « البدو » من جميع النواحي ، وأحاطوا بهذا الموضوع المتشعب إحاطة شاملة ، فتحدثوا عن بيئة البدو وطبيعتهم وتاريخهم وعقائدهم وثقافتهم ، ثم فصّلوا الكلام عن أصل البداوة من الوجهة الجغرافية ، وبداوة الماعز والأغنام ، والبدوي على ظهر الجواد ، وظهور بداوة الجمل في شمالي إفريقية ، والبداوة في الجزيرة العربية عامة ، والبداوة فيها قبل الاسلام ، ثم مصادر هذه البداوة ، وتاريخها ، والروابط السياسية لها ،

والنظرة الأخلاقية عند البدو ، ثم دينهم ، ولم يتركوا بذلك مزيداً لمستزيد .

ولعل هذه البحوث جميعاً أنفس ما كُتب عن البدو ، ولا شك أننا جميعاً ندرك ما للبدو من شأن في نشأة الاسلام وتاريخه وفتوحه وآدابه وتراثه ، ومن ثم فإن هذا الكتاب لا يستغني عنه قارىء عربي أو دارس للاسلام . وحسبه أنه قد ضم أحدث وأشمل بحوث المستشرقين في هذا الموضوع الهامّ ، وقد نشروا هذه البحوث في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية .

ونحن إذ نقدّم هذا الكتاب للقراء الأعزاء ، نرجو أن يكون ذا نفع لهم .

والله المعين ،

ابراهيم زكي خورشيد
رئيس تحرير النسخة العربية
من دائرة المعارف الاسلامية

« البــدو »

(١) يوجد البدو الرعاة ، ذوو الدماء واللغة والثقافة العربية في شبه الجزيرة العربية عينها ، وفي بعض أرجاء إيران وتركستان السوفيتية وشمالي إفريقية والسودان . ونقتصر في هذه المادة على عرض أسلوبهم في الحياة بوطنهم . وتختلف البداوة الرعوية عن الصيد وجمع الثمار عند البدائيين في أنها نظام معقد لاستغلال الأرض غير الصالحة للزراعة . فالرعي ينشأ بعد الزراعة ، ومن ثم ينتفع بالحيوانات المستأنسة وهي الأغنام والماعز والبقر التي استأنسها الناس في العصور الحجرية الحديثة باعتبارها عنصراً في المزيج بين الرعي والزراعة بغربي آسية ، **والحمار الذي استؤنس للنقل مع مستهلّ العصر**

البرنزي ، والجمل والحصان والجاموسة التي استُخدمت لأول مرة إبان العصور التاريخية .

ولعل الشعوب التي تعيش على صيد الغزال وبقر الوحش والوعل والنعامة وطائرَي الحبارى والسمّان كانت فيما يرجح تنفرد بسكنى الصحراء حتى سنة ٥٠٠٠ ق . م تقريباً . وعندما بدأ الزراع في العصر الحجري الحديث استقروا في أطراف البرية وأغرت هذه البرية رعاة الأغنام والماعز بوفرة ما ينبت فيها من الكلأ في مواسم على أن يسوقوا قطعانهم مسافة بعينها أثناء الشتاء والربيع . وبعد أن استُخدم الجمل لأول مرة عام ١١٠٠ ق . م وجد البدو الدائمون أن في وسعهم أن يعيشوا في الصحراء معظم أيام السنة ، فيقضوا الصيف عند الآبار أو على أطراف الواحات ومجاري المياه الدائمة . وعندما استخدم الجواد لأول مرة في الركوب بعد سنة ٥٠٠ ق . م ، وربما في تاريخ متأخر يرجع إلى أول عهد المسيح ، كسب البدو العرب الذين يستخدمون الجمل حيواناً يمتطون صهوته ، وبهذا أتيح لهم أن ينازل بعضهم بعضاً

باقتدار . وأمكن بذلك أن يبدأ العصر الذهبي للحياة العربية في الصحراء .

وإن العدد الضخم من المواقع الأثرية التي لم يرتدْها بعدُ أحد في الصحراء العربية ، ثم اتساع نطاق الجفاف منذ استخدام الجمل لأول مرة ، والإشارات التاريخية في المصادر الأدبية للعصر الجاهلي ، تدل على أن جُل البدو من العرب ينحدرون من صلب فلاحين وتجار وأصحاب قوافل انصرفوا إلى الرعي إبان القرون الأولى من هذا العصر بسبب كساد الأعمال وجدب الأرض شأنهم في هذا شأن رعاة البقر والمشتغلين بالرعي في الولايات المتحدة وكندا وأستراليا الذين ينحدرون من صلب أناس من أهل الريف والحضر أفادوا من الأراضي التي اكتشفت حديثاً . وتنحصر الفترة ، التي تطورت خلالها الحياة البدوية العربية وتبلورت ، بين عصر المسيح وعصر محمد صلى اللّه عليه وسلم .

وتُمارَس في الجزيرة العربية خمسة ضروب من

البداوة ، ففي جبال القَرا في ظُفار على المحيط الهندي شعوب تتحدث بلغات سامية من مجموعة اللغات المهرية السقطرية ترعى أنعاماً من ذوات الأسنام على الكلأ الذي **ينبت** ويترعرع من سقوط الأمطار الغزيرة التي تهطل بفعل الرياح الموسمية التي تهب صيفاً . وفي المناطق المزروعة من جنوبي العراق عائلات بعينها من الرعاة تربي قطعاناً من الجاموس وتطلقها لترعى في الحقول بعد حصاد المحصول أو في الأرض المراحة . ويعيش هؤلاء الناس في بيوت شبه أسطوانية تقام من حصير يشد على قوائم ويمكنهم نقلها في المواسم مسافات قصيرة . وعلى أطراف الصحراء ، وبخاصة في المنطقة المجاورة للكويت ، عشائر وقبائل بأسرها من رعاة الأغنام ، يمتطون ظهور الحمير ، يسوقون أغنامهم وماعزهم من مزعى إلى مرعى . وخارج هذه المنطقة في وسط الصحراء يرعى البدو الخلّص قطعانهم من الجمال ظاعنين بها إلى المناطق التي سقطت عليها الأمطار حديثاً في فصل الشتاء والربيع

ويحلون قرب ينابيع الماء الدائم في فصل الصيف .

وتعتمد هذه الضروب الأربعة من البداوة على الاحتياجات الوظيفية للجسم والطاقات المختلفة للأنعام التي ترعى الكلأ ، فالماشية ذات الأسنام تحتاج إلى كلأ أخضر وماء كل يوم ، أما قطعان الجاموس فتحتاج إلى جداول أو مصارف للري تتمرغ فيها وتنعم ، وأما الأغنام والماعز فتستطيع أن ترعى الكلأ الذي جف جانباً من العام ، وهي تسعى وئيداً ولا تطيق أن يمنع عنها الماء أكثر من يوم أو يومين . وتستطيع الابل أن تسير سبعة عشر يوماً دون أن تتذوق الماء في جو ترتفع فيه درجة الحرارة إلى (١٠٠ فهرنْهَيت) ويمكنها أن تشرب ٣٠ جالوناً من الماء دفعة واحدة . والحق إن قدرتها على تحمل شدائد الصحراء لا ترجع إلى طاقتها على اختزان الماء فحسب بل إلى قدرتها على الاحتفاظ به أيضاً . ويستطيع الجمل أن يتحمل ارتفاعاً في درجة الحرارة يصل إلى إحدى عشرة درجة فهرنْهيتية فوق المعدل العادي لدرجة حرارة الجسم دون أن يفقد الكثير من الماء بالعرق

كما أن الابل تختزن الطاقة شحماً في أسنامها . أما الجواد العربي فإنه إذا استُبقي في الصحراء يُسقى من ماء محمول ويقدَّم إليه غذاء من الحبوب ويعامل كالآدميين ويحظى مثلهم بالرعاية والاهتمام . والأغنام والماعز والماشية والجاموس والنوق كلها تدرّ لبناً ، ويستخدم شعر الماعز في صناعة الخيام ، أما صوف الأغنام ووبر الجمال فيتخذ لباساً . وتؤكل لحوم كل هذه الأنعام ما عدا الخيل . ولا يفيد الجواد إلا في ضروب النقل التي تتصل مباشرة بالحرب والهيبة . ولما كان أهم الاعتبارات جميعاً بالنسبة للأعرابي في الصحراء هو المرتبة الاجتماعية والاستقلال فإن الجواد يحظى من أجل هذا بالتكريم .

وأقدم سكان في الصحراء هم **الصُّلَبة** (انظر هذه المادة) ولعلهم ينحدرون من صلب صيادين أوائل ، ويمثلون أرومة عامة متجانسة من جنس البحر الأبيض **تكيفت بالصحراء. وهم يعيشون في شمالي الجزيرة** العربية بين أشراف البدو ويعملون في خدمتهم أدلاّء وسمكرية ونجارين ، كما أنهم يشتغلون أحياناً

بالصيد أيضاً . أما نساؤهم فإنهن يقمن بمهمة الترفيه . ويليهم في عراقة المحتد المحتملة ، القبائل المشتغلة بالرعي مثل حلفى الشرارات والمنتفق . ويعتمد هؤلاء في الغالب على البدو الذين يستخدمون الجمال بسبب استقرارهم النسبي ، ومن ثم تجردهم من وسائل الدفاع . ويعمل أفراد من هذه القبائل في خدمة البدو الذين يستخدمون الجمال رعاة مأجورين . وتمتلك القبائل النبيلة المحتد جمالاً تسوقها وتمتطي ظهورها عند الترحال وتحرسها وتذود عنها وهي ترعى . وفي قيظ الصيف تجني أحياناً البلح من نخيل الواحات بل تمضي إلى صيد اللؤلؤ .

كما يعمل في خدمة أهل هذه القبائل حدادون ، من دم زنجي في الغالب ، يخرجون من أماكن عامرة وعبيد من الزنوج ، وينصب أصحاب الحوانيت من المدن أحياناً خياماً خاصة في مضارب البدو ليبيعوا فيها سلعهم ، على حين يقوم وكلاء متجولون لشركات كبيرة تتجر بالجمال بشراء جمال صغيرة تجمع عندما تصل إلى المرحلة المنشودة من

النضج ، ويتم جانب كبير من هذه الصفقات في أسواق الجمال مثل بُرَيْدة في نجد . وكثيراً ما يغشى أفراد القبائل النبيلة المحتد مدن السعودية العربية والأردن وسورية والعراق والكويت حيث يحتفظ بعضهم ببيوت في المدن ، وتعوَّد الكثيرون منهم على حياة الاستقرار وارتقى بعضهم إلى مناصب رفيعة في بلاد عربية مختلفة .

وتدور الثقافة المادية للبدو على التنقل ، فالخيمة السوداء المصنوعة من شعر الماعز ذات نسيج فضفاض يسمح للهواء بأن يتخللها ، ومع ذلك فإن أليافها تنتفخ عندما تبتل فتمنع المطر من اختراق جدران الخيمة ، وفي الصيف توفر لمن يقيم بها حِمىً من الظل المرغوب كثيراً وتفتح من الجوانب لكي يتخللها النسيم . وفي الشتاء تكون دافئة بسبب إغلاق جانبيها ومؤخرتها . وما لم تكن الخيمة من ذلك الضرب الخاص من الخيام التي تستعمل دواوين أو قاعات استقبال فإنها تُقَسَّم بستار إلى قسم للأسرة تشغله النساء والأولاد ، وقسم للضيوف يستقبل فيه

رب الأسرة أصدقاءه من الرجال . وتصنع أدوات المطبخ من المعدن والخشب وإن كانت كل أسرة تمتلك عادة طاقماً من أقداح القهوة الصغيرة المصنوعة من الصيني توضع في صندوق خشبي مقسَّم إلى خانات . ولباس العربي فضفاض مسترسل لا يعوق الحركة يوفر للجسم الدفء في الشتاء والرطوبة في الصيف ، ويحمي البشرة من البرد والحر على السواء ومن جفاف الهواء . وإلى جانب هذا فإن غطاء الرأس للرجل وكسوة الرأس للمرأة والنقاب تُعين على وقاية العينين والأنف والأذنين من أذى التراب والرمال .

ويحصل البدوي على الجانب الأكبر من زاده بالشراء ويشتمل على ملابس داخلية له من القطن وأدواته وأوعيته . كما يشتري الكثير من طعامه ويتضمن القمح والأرز والبلح والبن ؛ واللبن واللحم هما اللذان يحصل عليهما محليّاً من أنعامه .

والبدو مثل غيرهم من الساميين يولون أهمية كبرى للأنساب ، ويرون أن للقرابة أهمية قصوى في

العلاقات الإنسانية . ولما كان التصاهر المفضل هو ما يتم بابنة العم ، فإن الذرية لا تخرج عن نسب الأب . والطلاق ميسور والزواج بأكثر من واحدة لا ينقطع ويحدث في الوقت الحاضر . وتتمتع البدويات ـ وهن غالباً سافرات الوجوه يتزوجن أكثر من مرة في كثير من الحالات ـ بحرية أكبر مما تتمتع بها أخواتهن من أهل المدن والواحات . ووراء الأسرة ذاتها جماعة من الأقارب يخرجون عادة معاً سعياً وراء الكلأ . وتقضي جماعات عدة من هذه الجماعات فصل الصيف معاً ، وهذا هو عادة حد القرابة التي يقع على عاتقها أخذ الثأر المتبادل . ووراء هذا القبيلة ، وأخيراً الحلف . ويمكن أن نميز مسلسلتين رئيسيتين من أنساب البدو الأقحاح وهم يُسمون أيضاً الأعراب ، وهما بنو قحطان الذي عاش قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، والعرب المستعربة الذين ينحدرون من صلب إسماعيل عليه السلام ابن إبراهيم وهاجر ، وكانت ابنة ملك من ملوك الحجاز . ومن البدو الأقحاح حلف عنزة ومن أشهر

قبائله الرُوَالاَ وشَمَّر وآل مُرّة في الربع الخالي وعلى مشارفه ، وعُجْمان وبنو خالد . وتلتزم كل هذه القبائل بمجموعة من أحكام الفروسية الصارمة عندما يحارب بعضهم بعضاً .

ولما كان هؤلاء الأشراف من أصحاب الابل المتنقلين فإنهم يهتمون في الغالب بالافادة من المراعي فيْ الشتاء والربيع ، ومواضعها تختلف من عام لآخر إذ تخضع لتقلبات الأمطار ، ويقوم بالعمل في كل مضرب من مضاربهم أتباع من العبيد ، والصلبة ، والرعاة المأجورين ، والحدادين وكلهم لا يعدون من أهل النزال . ومن المألوف أن يولم الشيخ البدوي الولائم الباذخة في خيمة كبيرة والطعام فيها مبذول دائماً لأتباعه وضيوفه ؛ وشرب القهوة له عادات وتقاليد لا محيد عنها ، وتكاد تكون دائماً موضع إقبال الناس . وأفراد القبائل الأخرى الهاربون من الثأر ينشدون « وجهه » ؛ ويجتاز المسافرون أرضه في حماية حراسه ؛ وكثيراً ما يقود بنفسه رجاله في المعركة حين ينشب القتال بين القبائل ، والغالب

أن يكون ذلك حول حقـوق الرعـي ، والشجاعـة والكرم وسداد الرأي هي الصفات التقليدية التي يجب أن تتوفر في زعيم مثل هذا الشيخ الذي لا يرث منصبه مباشرة بل يختار من بين أفراد الأسرة ذات السيادة بعد نزاع شديد في كثير من الأحيان . وكان البدو يهدون القوافـل ، ويحمونهـا ويغيرون عليهـا بمـا في ذلك مواكب الحـج الضخمـة ، وذلك قبـل استعمـال الناقلات والحافلات والسكك الحـديدية والطائـرات في نقل البضائع عبر الصحراء .

والبدو مسلمون وسنّيون على وجه الخصـوص . وكثير منهم (وبخاصة في شرقي الجـزيرة العـربية) يتبعون المذهب المالكي، بيـد أن الوهابييـن يتبعون عامة المذهب الحنبلي . ويقـال إن البـدو ، بصفـة عامة ، يمضون في العبادة وقتاً أقل ويبذلـون جهـداً أصغـر من أهـل المـدن ، ولـكن قد تنعـكس الآية أحياناً . ويمكن أن نتبين في بعض شعائرهم بقية من تمجيد الأسلاف .

ويختلف الوضـع السياسـي للبـدو من عهـد إلـى

اخر ، فعندما تكون الحكومات المركزية ـ التي تخضع لها رسمّياً أراضي القبائل ـ ضعيفة ، **يحكم** الشيوخ ذوو الصدارة كما لو كانوا ملوكاً ، بل إن المدن تؤدي لهم الجزية . وفي الأوقات التي تكون فيها الحكومات المركزية قوية تصبح سلطتهم محصورة في نطاق محلّي . ويوجد البدو في الوقت الحاضر في الحدود السياسية للعربية السعودية واليمن وعدن ومسقط وعمان والكويت والعراق وسورية ولبنان والأردن وفلسطين ومصر ودول شمالي إفريقية . وتحاول هذه الحكومات في الغالب أن تحتفظ بالبدو من سكانها في داخل بلادها . وفي بعض البلاد يدعم هذا الجهد ببرامج ترمي إلى توطين بعضهم في اراضي استُصلحت حديثاً للزراعة . وأقيمت على طول خطوط التابلاين صهاريج جديدة للمياه يستخدمها عدد من القبائل من بينها قبيلة الرُّوَالا .

وانتقلت جماعة من إحدى القبائل هي الدَواسِر وموطنها الأصلي في جنوبي نجد ، إلى الخليج

العربي وإلى جزيرة البحرين ، ثم عادت عام ١٩٢٣ إلى البر واستقرت في الخُبَر والدّمام وعمل بعض أفراد قبيلة الدواسر في العقود الثلاثة الماضية في شركة الزيت العربية الأمريكية ، فبدأوا يعملون لحساب أنفسهم في الانشاء والنقل .

والبدو اليوم يجتازون فترة انتقال ، فبعضهم لا يزال يهتم بتربية الإبل للانتفاع بلحومها وجلودها ووبرها في الأسواق ، والبعض الآخر يشتغلون قادة ناقلات وميكانيكية ويقومون بتشغيل آلات إنتاج الزيت بمهارة ، ويرسلون أولادهم إلى المدرسة والكلية . وهم يثبتون أنهم يصلحون للعمل في عصر الآلة كما كانوا يألفون العيش في الصحراء عندما كانت تسنح لهم من قبل فرصة .

« ٢ » تاريخ أصل البداوة من الوجهة الجغرافية :

(ا) بداوة الماعز والأغنام .

(ب) البدوي على ظهر الجواد .

(جـ) البداوة في الجزيرة العربية .

(د) ظهور بداوة الجمل في شمالي إفريقية .

أ - بداوة الماعز والاغنام .

إن مصطلحي « بدوي » و « بداوة » **يفقدان** صلاحيتهما للتطبيق العلمي إذا لم يستخدما بمعناهما الضيق وهو « السعي من مكان إلى مكان وراء المرعى » ، فالبداوة إذن تجوال ليس فيه استقرار ورعي قطيع من الأنعام .

أما جامعو الثمار والصيادون الجائلون وكذلك السكان الذين يتنقلون سعيا وراء الأرض الصالحة للزراعة فلا يوصفون بالبداوة .

وإذا تتبعنا تعاقب « الأصول الزراعية » في العالم القديم (بمفهوم ك . أ . ساور *C.O.Sauer* ١٩٥٢) كما تناولها المؤلفون وفضلوها في بحثين (١٩٥٦ ،

١٩٥٧) فإن البداوة بهذا المعنى الضيق بدأت في عصر متأخر عن الزرع وتربية الحوانات المنزلية ، أي الكلب والخنزير والدجاجة (يفرّق ساور بين الحيوانات المنزلية وبين حيوانات الرعي) .

وبحسب تفسير ساور ، بدأ تعاقب المراكز المبدعة لاستئناس الحيوان والزراعة ، وهو تعاقب لا يزال في حيز الفروض ، على طول ضفاف الأنهار وسواحل الغابة الاستوائية الرطبة حول خليج البنغال حيث شرع قوم من صيادي الأسماك ـ الذين استقروا بعض الاستقرار والذين كانوا فضلاً عن هذا يصطادون الحيوانات ويجمعون النباتات وبلح البحر ـ في تربية هذه « الحيوانات المنزلية » (الكلب والخنزير والدجاجة) وفي زرع الدرنات وشجيرات الفاكهة والأشجار .

أما زراعة نباتات البذور (« الدُّخْن » ـ وهذا مصطلح يشتمل على مختلف أنواع الحبوب الصغيرة ـ وكذلك البقول والنباتات التي يستخرج منها الزيت) فقد أضيفت وقتذاك في الغابة التي تجف في الشتاء حيث

يمكن إحراقها بسهولة ، وفي السهوب ذات الأشجار في الهند أول الأمر ، وهذه النباتات تمد الانسان بالبروتينات والزيت وتجعله يستغني عن الغذاء الحيواني وبخاصة السمك .

ويبدو أن الخطوة التالية التي أقدم عليها الإنسان في هذا التعاقب المطرد للثقافات (الذي أصبح فيه « سيد المخلوقات » هي تربية الماعز ، (ثم) الأغنام في المناطق الجبلية شمالي غرب الهند حول جبال هندوكش . ولعل الذي حفز إلى هذا الاتصال الوثيق بين زراع البذور وصيادي الجبال الذين كانوا يعدون الماعز البري أو الأغنام البرية **حيوانات**مقدسة . وهكذا نشأت ثقافة اضيف فيها الرعي إلى زراعة البذور والصيد . وقد تعد مرحلة أولية للزراعة باعتبارها ثقافة تمتزج فيها الفلاحة بتربية الماعز والأغنام وذلك إذا أخذنا الزراعة بمعنى المزيج من الرعي وفلاحة الأرض .

والنتائج التي أسفرت عنها البعثة الخاصة بدراسة السلالات التي قام بها أ . فريدريك *A .Friedrich* تؤيد

تأييداً قوياً صحة هذا الفرض وبخاصة بالنسبة للماعز .

وفي الوديان القصية لشِنْ بكِلْكِت يعد الماعز البري ذو القرون اللولبية الشكل ، وكذلك الوعل ، من الحيوانات المقدسة التي « ترعاها ربّات » ويشترك معهما في هذه القداسة العنزة الأليفة وهي من نسل الماعز البري من الاقليم نفسه . وكان اقتصاد شِنْ يقوم على زراعة النزر اليسير من الدُّخْن مع الاستكثار الكثير من سلالات من الماعز وصيد وفير للماعز البري والوعل . ويسوق جتمار *Jettmar* عدة أدلة على النظرية التي تقول إن استئناس الماعز حدث في هذه المناطق .

ولا بد أن تجربة استئناس الحيوان ـ وهي هذا التدخل الهائل في ميزان الطبيعة ـ قد اقتضت دائماً عاطفة دينية عميقة . ويطلق جتمار على هذه العاطفة اسم فورة دينية جياشة إلى الاستئناس . (انظر *E.Hahn*). (*E* .

ولعل زراعة الشعير المزدوج الصف باعتباره أول

بذر كبير قد تطورت فعلاً في تلك المنطقة . ومن الراجح أن يكون الري على نطاق صغير قد بدأ في هذه المرحلة ، إن لم يكن قد بدأ في مرحلة أقدم من ذلك .

وإنما مسألة الخطوة الكبرى التالية التي كانت إلى حد كبير سبباً في تنويع أساليب الحياة الاجتماعية والاقتصادية هي التي يتفاوت بعدُ حظها من الإثبات من حيث علم الآثار ، ففي الهضاب والجبال القائمة في غربي آسية ، في موضع بين غربي إيران وسورية ، كانت الماشية تربى وكان القمح البدائي يزرع إلى جانب الفلاحة الأساسية التي تقوم على تربية الماعز والأغنام . وليس من شك في أن إمكان إقامة ثقافة تقوم بأكملها على الفلاحة ، هو الذي أصبح من بعد أساس حضارة عريقة قامت في بلاد ما بين النهرين ومصر .

وكانت هذه النُويّات الرئيسية الأربع للثقافات المبدعة التي أثمرت تربية الحيوانات وزراعة النباتات تعتمد بعضها على بعض . وقد ينظر إليها على أنها ليست إلا مركزاً واحداً متنقلاً يظهر قرب خليج البنغال

ـ يسير قدماً إلى أن يبلغ الهضاب والجبال الواقعة حول
لاد الجزيرة ، وقد دفعت كل مرحلة من هذه المراحل
الأربع موجات متفرقة إلى أجزاء كبيرة من هذا
العالم . ويبدو أن جميع الأقاليم الأخرى بالقياس إلى
هذه المراكز المبدعة ، كانت مناطق يتفاوت حظها من
الركود ، اقتبست فيها عناصر من هذه الموجات أو
عدّلت أو أنكرت حسب ما أملته الظروف الحضارية أو
المناخية .

وأول معلومات يمكننا أن نستخدمها في إدراج هذا
التعاقب في إطار من الزمن المطلق هي المعلومات
الخاصة بالكربون الاشعاعي بالنسبة للمحلات التي
قامت قبل عصر الفخار مع وجود الفلاحة الكاملة قرب
قلعة جَرْمو في التلال الواقعة شرقي كركوك حوالي عام
٤٧٥٠ ق . م ، وهي محلات لا تعرف الري
والمعلومات الخاصة بمحلة أريحا *Jericho* المحصنة التي
عرفت الري في الألف السابعة قبل الميلاد . ويشك
و . ف . آلبرايت *W.F.Albright* في هذا التاريخ الأخير
(رسالة شفوية منه) . وكان القمح البدائي الذي

ينمو في قلعة جرمو لا يزال أقرب ما يكون إلى الشكل البري منه إلى الشكل المزروع من بعد .

وربما يدل هذا على أنه لم يكن قد مضى وقت جد طويل منذ الشروع في زراعة القمح البدائي . ويقال إن أقدم طبقات في المحلات الواحية المعروفة في أريحا يرجع تاريخها إلى أوائل الألف السابعة قبل الميلاد ، ولكن كنيون *Kenyon* وتسونر *Zeuner* لم يكونا قد أنبآنا بنبأ الحيوانات الأليفة (ما عدا العنزة) وزراعة البذور هناك . ولعل الحضارة الناتوفية *Natufian* في فلسطين (كارو *Garrod* ، وبيت *Bate*) أعرق من أقدم الطبقات في أريحا . ونحن نشاطر ساور *Saver* وآلبرايت *Albright* (سنة ١٩٤٩ ، ص ١٢٩) الرأي ونفترض أن زراعة البذور ، التي تثمر بعض أنواع الدُّخن ، كانت قد تمت إبّان المرحلة الناتوفية .

ومن جهة أخرى فإننا الآن على قدر كبير من اليقين بأن الألف التاسعة ق . م . كانت عصراً شديد البرودة في جميع أرجاء الأرض (الزحف الجليدي المعروف باسم «*Salpausselkae*» في شمالي أوروبا ،

والـ «Schlern» في الألــب والـ «Mankato» في أمــريكا الشمالية حتى منطقة البحيرات الكبرى والجلاميد حول البحيرات التي عند سفوح الجبال شرقي بتاغونيا) وقد بلغ حد الثلج في هذا العصر ما يقرب من ٨٠٠ متر وهو أقل من هذا الحد الآن . ولكن درجات الحرارة كانت أكثر ارتفاعاً منذ عام ٥٥٠٠ إلى عام ٢٥٠٠ ق . م . تقريباً في جميع أنحــاء الــكرة الأرضية عما هي عليه الآن ، ولهذا كان حد الثلج وحد الشجر وحد الحَب المحتمل تقع على ارتفاع يقرب من ٤٠٠ متر تقريباً فوق الخطوط الحالية (الحرارة القصوى) . ويخيل إليّ أنه من المستبعد أن تنشأ ثقافة رعـوية في الجبـال الواقعـة شمالي غربي الهند في عصر زحف جليدي أو تجمُّد غاية في الشدة ؛ وإني لأذهــب إلى أن هذا حدث في فتـرة انحسار جليدي ، وربما كان في النصف الأول من هذه الفترة ، وقد وقع هذا الانحسار طوال الفتـرة من عام ٨١٠٠ الى عام ٥٥٠٠ ق . م . وارتفعـت درجــات الحرارة بسرعة نوعاً ما ووصل حد الشجر وحد الحَب إلى الارتفاعـات العظيمـة المذكورة سابقــاً . ولــكن

الواحات الطبيعية في الصحراوات المحيطة بسلاسل الجبال في آسية الوسطى أخذت دائماً تتضاءل وتندر نظراً لأنها كانت تستمد مياهها من أنهار تولدت من الثلاجات المرتدة التي كان حجمها ينكمش باستمرار . وأمكن لثقافة تقوم على تربية الأغنام أن تنتشر حوالي عصر الحرارة القصوى وأثناءه ، في أرجاء التِّبَت حيث كان الجو ألطف كثيراً وقتذاك . ولم تكن هذه الثقافة بدوية خالصة . ولعلها بدأت في زراعة الشعير السُّتِّي الصفوف ، ومن الراجح أن شكله البري هو **Hordeumagriocrithon** الذي وجد حول لهاسا وفي شرقي التِّبَت (*Schiemann ,Freisleben* سنة ١٩٤٨ و ١٩٥١) . ويبدو أن الأنواع المختلفة المزروعة من الشعير السُّتِّي الصفوف مولدة كلها من هذا النوع . وقد انتشرت في أرجاء الصين والهند ، ويبدو أنها شقت طريقها من الهند إلى جنوبي الجزيرة العربية والحبشة (التي أصبحت مركزاً ثانويّاً للتحول) ، ومن هناك وصلت إلى صعيد مصر حيث كان القمح البدائي المزروع قد دخل من سورية ونما في صعيد مصر إلى

جانب الشعير السِّتّي الصفوف في الألف الخامسة الأخيرة ق . م .

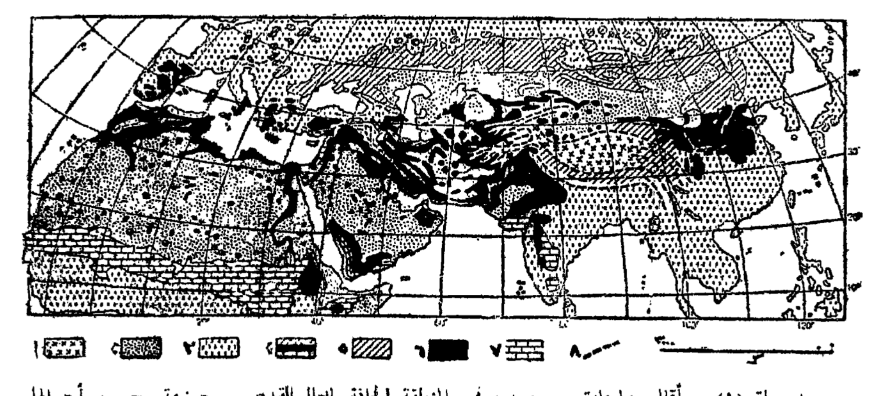
والظاهر أن الطريق من هندوكش وشرقي إيران المار بجنوبي الجزيرة العربية إلى إفريقية كانت له أهمية كبيرة في نشر الثقافات ، وانتشار القبائل أيضاً ـ إبان فترات طويلة وبخاصة أثناء الفترات التي انتشرت فيها زراعة البذور قديماً ، والفلاحة التي تقوم على تربية الماعز والأغنام .

وليس في الجزيرة العربيةوالحبشةماعز بري. بيد أن تبجيل صيد الوعل وطقوسه انتشر أيضاً في هذه البلاد . وكانت عبادة الوعل شائعة في جنوبي الجزيرة العربية في الألف الأخيرة قبل الميلاد . وكان الإله الوعل تألب حامياً للماعز والغنم (*Beeston* · *Hoefner*) . وقد كان صيد الوعل حتى اليوم شعيرة في حضر موت . ويبدو أن الوعل كانت له مكانة مماثلة لذلك في ثقافتي البداري ونَقّادة القديمة في مصر بعد عام ٤٠٠٠ ق . م . وكانت مكانته في نقّادة إلى جانب

الثـور . ويجـدر بنـا ألا ننسى أن أكاثـرخيدس *Agatharchides* (حـوالي عام ١٣٠ ق . م . يقـول في وصفه سكان الكهوف المتبدّين قرب الساحل الغربـي للبحـر الأحمـر (المعـروف باسـم البلميس *Blemmyes* والبجا) أنهم كانوا يسمون الثيران والكباش أباهم ، والبقر والغنم أمهم .

وكانـت الثقافـات الأولى القائمـة على تربية الماعـز والأغنـام بالدُّخـن وتـربية الماشية بالحبـوب الكبـيرة مقصورة في تفاوت ما على الأجواء والزروع . من غابة غير كثيفة وسهوب حافلـة بالشجـر ، إلى أرض شبـه صحراوية وكذلك على الواحات الطبيعية والصناعية .

وتمتاز كل هذه في الغالب بتربة رقيقة خصبة يمـكن زرعها بسهولة (خريطة رقم ١) . والسهوب الحافلة بالشجـر صالحـة للزراعـة والرعـي على السـواء . والسهوب الجافـة أميل إلى أن تكون مراعـيَ جيدة ، فهي أرض صالحـة للزراعـة ، بيد أن الزراعـة التـي تعتمد على مياه الأمطـار تتعـرض للخطـر في سنـوات



خريطة (١) . أقاليم واحات وسهوب في المنطقة الجافة للعالم القديم . مصنفة حسب أحوالها الحرارية .

١ ــ صحراء هضبية ؛ ٢ ــ صحراء ، وشبه صحراء ٣ ــ غابة ؛ ٤ ــ واحة ، وسهب ، وسهب حافل بالشجر ؛ ٥ ــ سهب صيفه رطيب وشتاؤه بارد ؛ ٦ ــ واحة ، وسهب صيفهما طويل جار ؛ ٧ ــ سهب مداري ليس فيه جليد ؛ ــ سلسلة جبلية .

الجفاف . والسهوب الصحراوية أو شبه الصحراوية أجف من أن تصلح لهذا النوع من الزراعة . ومهما يكن من أمر فإنه يمكن الافادة منها مرعى هزيلاً للماعز والأغنام ولكنه لا يصلح للماشية . وكذلك توجد المراعي الجيدة في الهضاب الواقعة فوق خط الحبوب .

وفي مناطق السهوب الصحراوية حيث تنعدم الواحات أو تندراستطاع قوم من رعاة الأغنام والماعز، وليس الماشية ، أن يفترقوا عن القبائل المشتغلة بالفلاحة في السهوب وأن يصبحوا بدواً مستقلين . ومهما يكن من أمر فإن مثل هؤلاء البدو الذين يربون الغنم في مناطق شبه صحراوية لا بد أن يكونوا في جميع الأحوال قد عاشوا دائماً في ضنك بالقياس إلى القبائل التي تعيش في مناطق أكثر رطوبة أو مناطق تتناثر فيها واحات . وفي هذه المناطق الأخيرة يكون فريق من القبيلة مشتغلاً بالزراعة ، وفريق آخر مشتغلاً بالرعي (« بداوة جزئية ») .

وهكذا نجد أن فرعاً من قبيلة أو وحدة اجتماعية تشتغل بالفلاحة في السهوب ـ أو حتى بالفلاحة في

الواحات ـ قد عاش في بداوة خالصة . (وتشبه هذه الطريقة في العيش إلى حد ما النُقْلة الموسمية في جنوبي أوروبا) . ويذهب و . ف . آلبرايت W.F.Albright إلى أن الجيران الساميين للسومريين كانوا من القبائل التي تشتغل بالرعي وتعيش في بداوة جزئية عندما شرع السومريون في ري أرض الجزيرة السفلى في مطلع الحضارة .

وضغط الساميون الغربيون (العموريون) على البابليين وبخاصة بين عامي ٢١٠٠ و ١٩٠٠ ق . م . وكان هؤلاء البدو القدماء يختلفون عن أي فئة حديثة من فئات المجتمع في الجزيرة العربية ، بدو أو شبه بدو أو صليب (صلبة) ، وكانوا يقتنون ماعزاً وغنماً وحميراً . وكان الصيد وسرقة المحصول عندهم من الأهمية بمكان . وكانوا يرحلون ويغيرون وهم راجلون . وقد أدى هذا إلى تعذُّر عبورهم الصحراء عبوراً كاملاً إلا في فصل الربيع . ولم يكونوا يجرؤون على الظعن أكثر من مسيرة يوم واحد (٣٠ كم) من مورد المياه . وكان عليهم في الصيف أن يعتمدوا على

واحات أو مناطق عامرة أخرى أو ينتجعوا الكلأ في مناطق فلاحة بالهلال الخصيب . أما عن موقف المصريين تجاه هؤلاء القوم الرحل وهيمنتهم على الحدود في الشرق فانظر كيس (*Kees* . ص ٦٤ وما بعدها ، ١٠٦ وما بعدها وبخاصة بردية بطر سبرغ ورقة رقم ١١١٦ ، سطر ٥١ وما بعده : « إن] الأسيوي [لا يقيم قط في المكان الواحد ، ويتجول بقدميه منذ عهد حورس ، وهو يحارب غير غالب ولا مغلوب ») .
وكان الفرق بين البدو ، وأشباه البدو ، والبدو في أوقات معينة ، وفلاّحي السهوب ، وبين فلاحي الواحات الصغيرة ، طفيفاً ، وكان التداخل المهني شائعاً أكثر مما كان عليه في الفترات المتأخرة . ومن الأفضل في كثير من هذه الحالات أن نتحدث عن الرعوية لا البداوة .

ويبدو أنه لم يحدث أن انتشرت في أي جزء من آسية أية بداوة كاملة تعتمد على رعي الماشية كما هو حادث في أجزاء من إفريقية جنوبي الصحراء ، اللهم إلا البداوة التي تقوم على رعي البقرة الوحشية المسماة الخُشْقاء

(*Yak*) في الهضاب الواقعة فوق حد الشجر في تيان شان والتِّبَت . والحق إن الماشية لا يلائمها الرعي في أرض شبه صحراوية ، كما أنها تجد صعوبة في رعي الكلأ في فصل الشتاء في السهوب التي يكسوها جليد كما هي الحال في غربي سيبيريا .

وقد تبينا أن الحياة الرعوية كانت جانباً لا يستهان به في الثقافات التي عرفت الفلاحة منذ نشأتها . ورأينا أن أقدم استئناس للقطعان ورعيها قد تطور فيما يرجح بمنطقة هندوكش على يد زراع للبذور يحيط بهم صيادون جبليون للوعل والماعز البري (وربما الغنم) وأن هذا كان ابتداعاً ارتبط بعاطفة دينية عميقة ، وهو ابتداع انتهى بزراع البذور إلى أن يصبحوا فلاحين في السهوب ، ولا بد أن هؤلاء الفلاحين في السهوب كانوا أكثر ظعناً من زراع البذور بسبب الشُعب المشتغلة بالرعي من عشائرهم .

ولكننا لن نتحدث عن البداوة الكاملة إلا في البقاع التي انشق فيها رعاة الأغنام والماعز تماماً عن أقربائهم أو جماعتهم وتخلَّوا عن الزراعة .

وعندما كانت تتسع رقعة إحدى الواحات ويزداد بها العمران فإن سكانها كانوا يزدادون ميلاً إلى ملازمتها والإقامة فيها . وتدل الحفائر الجديدة عن آثار ما قبل عصر الفخار في أريحا على أن مثل هذه القرى التي يتوفر فيها الري كانت قديماً جدّاً محصنةً مثل المدن ، وربما حدث هذا في أريحا في الألف السابعة قبل الميلاد . ولعل هذه كانت أول بذرة غرست للحضارة التي أصبحت من بعد حضارة قديمة في الألف الرابعة ق . م . في واحات دلتا الجزيرة حيث اقتضت الخطط الموضوعة للري على نطاق واسع معاونة الحكومات وتمركزها وتشكيلها ، وحيث كان العمل الجماعي مطلوباً بنفس القدر المطلوب به تقسيم العمل والتخصص فيه وتدعيمه ، وحيث ظهرت الاختراعات التِّقْنية (العجلة ، والعربة ، والمحراث) .

وأخذ التناقض بين الفلاحة في السهوب وحضارة الواحات يزداد شدة باستمرار نتيجة لهذا التطور ، على حين تمثل النسل العام في « الأم العظمى » والأصنام

التي نحتت على هيئة الثور ، وهذه وتلك كانتا تعبدان في كلتَيهما .

وفي غضون ذلك كانت الفلاحة في السهوب بكل سماتها الرعوية قد انتشرت عن طريق آسية الصغرى إلى جنوبي شرق أوروبا ، وإلى غابات السنديان القليلة الكثافة في وسط أوروبا (الحضارة الدانوبية ، منذ حوالي عام ٤٠٠٠ ق . م . طبقاً للمعلومات الخاصة بالكربون الإشعاعي) . وبدأت منذ فترة الألف الثالثة في التسلل من ثقافة تريبولاي (غربي نهر الدنيبر) إلى السهوب الحافلة بالشجر في روسيا وسيبيريا ، وكان يسكنها وقتذاك قوم متقدمون من الصيادين (*Hanchar*) . وكانت كل هذه الأقاليم غير صالحة لاقتصاد واحيّ لأن فصول الصيف فيها كانت باردة وقصيرة (خريطة رقم ٢) .

وإني لأحسب أن سمة من سمات التعاقب الفرضي إلى حد كبير للمراكز المبدعة التي تتيح للإنسان أن يكسب خطوة بعد خطوة السيطرة على الكائنات الحية



خريطة رقم (٢) المناطق النباتية وواحات الحزام الجاف في قلب آسية

١ – غابـــة .

٢ – سهوب شجراء صالحة للرعي والزراعة .

٣ – سهوب جافة صالحة للزراعة ، والزراعة على المطر مهددة بالخطر .

٤ – شبه صحراء ، مرعى هزيل .

٥ – صحراء .

٦ – مرعى فوق حـــد الشجر .

٧ – فوق حد الشجر (صخر – صحراء – جليد) .

٨ – حد منطقة ممكنة الزراعة على المطر .

٩ – واحـــــة .

١٠– واحـــــة سابقة .

الأخرى ويوسع من نطاق هذه السيطرة ، هي التي تطابق على نحو أفضل تعاقب الثقافات الذي يصوره كثير من علماء السلالات مثل ديتمر *Dittmer* ، كما أن لها الفضل في جعل الاختراعات المناظرة لها غير ضرورية إلى حد كبير .

ولا نستطيع هنا أن نتناول الرأي الذي ساقه فلور *Flor* وشميت *W. Schmidt* وبوهلهاوزن *Pohlhausen* وغيرهم ، وهو الذي يقول إن حيوان الرنة يمثل أقدم الأنعام المستأنسة التي رعاها الإنسان ، ولهذا فإن البداوة تبدأ بين صيادين يربون الكلاب في غابة الأشجار المخروطية في منطقة القطب الشمالي (الغابات ذات الأشجار المخروطية وغابات المستنقعات) في أوراسيا ، وتنتشر نحو الجنوب .

وقد أوضح جتمان *Jettman* (١٩٥٢ - ١٩٥٣) وآخرون منذ عهد قريب أن الحوافز التي دفعت إلى استئناس حيوان الرنة نشأت من تربية الجواد ، ويعد هو نفسه من الحيوانات التي اقتناها الانسان في عصر متأخر نوعاً ما (انظر ما يلي) وقد أصبح عدد أنصار

هذا الرأي ضئيلاً ؛ كما انهار الأساس الذي بنى عليه هانكار *Hanciar* رأيه القائل بأن حيوان الرنة استخدم في الجـر والــركوب . ويبــين جتمار *Jettmar* (١٩٥٧) وأوكلادنيكوف *Okladnikov* أن ما عثر عليه في إقليم لينا *Lena* من آثار تكشف بجلاء عن استخدام حيوان الرنة في الركوب ، لا يرجع تاريخها إلى الألف الثانية ق . م . كما رأى هانكار *Hanciar* ، بل إلى تاريخ يبدأ من عام ٧٠٠ ـ ٥٠٠ ق . م .

ب ـ البدوي على ظهر الجواد .

من بين فصيلة الجياد كان الحمار الافريقي وحمار الوحش بجنوبي غرب آسية ووسطها يُستخدمان قديماً دوابَّ نقل . ويرى هانكار Hqnchar أن ما عثر عليه من عظام حمار وحش في قلعة جَرْمو (حوالي عام ٤٧٥٠ ق . م) له أهميته فيما يرتبط بهذا الموضوع . ويقول هانكار إنه يمكن أن نميز سلالة ثانوية للجواد في أوائل الألف الثالثة ق . م . في ثقافة تريبولاي التي عرفت الفلاحة في السهوب الشجراء بين جبال الكربات ونهر الدنيبر .

وقد أدى انخفاض في درجة الحرارة بل زيادة في الترسب على ما يرجح منذ حوالي عام ٢٤٠٠ ق . م إلى انخفاض حد الثلج في آسية الوسطى ، وهكذا اتسعت رقعة المناطق الواحية في طوران اتساعاً كبيراً جعل

الفلاحة والرعي وكذلك الحضارة الواحية تنتشر في ذلك الإقليم (الذي كان من قبل صحراء أكثر قحولة) ويبدو أن هذه الصحراء كانت قد ظلت على الأقل بضعة قرون لا تؤدي وظيفتها من حيث هي حاجز قوي (*Wissmann* ، سنة ١٩٥٧) ، وحدث اتصال بين الصيادين المرتقين من أبناء الشمال والفلاحين والحضارة الواحيّة في الجنوب على طول حد يمتد امتداداً واسعاً ، ويبدو أن هذا اللقاء قد أدى إلى إدماج ؛ ونشأت ثقافة تتميز بالحيوية والقوة كان للجواد فيها وللعجلة الحربية (ولعلها ابتدعت أصلاً في مكان ما من هضاب جنوبي غرب آسية حول أرمينية) والشعوب الهندية الأوروبية شأن عظيم منذ مستهلّ الألف الثانية قبل الميلاد . وأثناء هذا التطور المستمر استبدل بتقديس الأيل ، الذي كان من قبل محور التطورات الدينية لصيادي الشمال وأساطيرهم ، تقديس الجواد الذي ربط بدوره بعبادة آلهة الخصب القديمة في العالم السفلي بجنوبي غرب آسية وعبادة الثور .

وإذا نظرنا إلى هذا التطور الثقافي المستمر الواسع

النطاق جملة فإننا نستطيع أن نقول إن الحضارة كثيرا ما تحررت بفضله من العزلة الواحيّة إذ كانت عرضة لخطر الجمود أو العقم . وهنا نستطيع أيضا أن نفرّق بين الفلاحة في السهوب وبين الفلاحة في الواحات ، وعندما احتل الشانغ ـ الذين كانوا ينتمون إلى هذا المركب الثقافي المعقد ـ الصين قادمين من وسط آسية حوالي عام ١٥٠٠ ق . م وأصبحوا الطبقة الحاكمة لها ، كانوا في الغالب من فلاحي الواحات . ومهما يكن من أمر فإنه مما لا شك فيه أن الآريين كانوا من فلاحي السهوب عندما قضوا على حضارة الشعوب الهندية في نفس الفترة تقريباً ، بيد أنهم لا يمكن أن يسمَّوا بدواً .

وتدل أعمال التنقيب على أن تربية الجمل البَلْخي ذي السنامين باعتباره من دواب الحمل قد بدأت فيما دو في طوران في النصف الثاني أو الربع الأخير من الألف الثالثة قبل الميلاد (*Walz* ، وبخاصة *Hangmar*) . وهذه الفترة أسبق ببضعة قرون على العهد الذي علمنا أن تربية الحصان كانت شائعة فيه

بهذه المنطقة . بل إننا في بلاد ما بين النهرين نجد أن الأدلة التي يوثق بها على استئناس الحصان لا تبـدأ إلا حوالي عام ٢٠٠٠ ق . م . أو قبل ذلك بقليل .

ولقـد أخـذت أهمية الزراعـة تزداد بالتـدريج إلى جانب الصيد والرعي في السهوب الشجراء في المنطقة الشمالية وفي الغابـة غـير الكثيفـة الواقعـة على الحافـة بتربتها السوداء الخصبة الممتدة من روسيا إلى سيبـيريا الغربية نفسها آهلة نسبياً بالسكان المشتغلين بالفلاحة (ثقافـة أنـدرو نوفـو *Andronovo*) . وفي مثـل هذا الاقليم الـذي يخلـو من الواحـات نجـد أن الفلاحـة الخالصة في السهوب التي ترعى بها قطعان الماشية على نطاق واسع تهـيء ظروفـاً صالحـة للـطبقية الاجتماعية فضـلاً عن تكوين عشائـر من طبقـة الأشراف الـذين يعشقون الحرب . والنزال ومـن الرئاسـة الحاكمـة . وكانت هذه الفلاحة في منطقة الأرض السوداء تتوغل آنذاك في السهوب المكشوفة شيئاً فشيئـاً ، وهنـاك لم يكن بد من أن تزداد شعبتها الرعوية الظاعنة ويشتـد عودها (هاناكار *Hanchar*) .

ومهما يكن من أمر فلعل أول شعب اكتشف الميزة الكبيرة للقتال على ظهور الخيل كان من القبائل المشتغلة بالفلاحة والتي لها فرع رعوي شديد البأس عاش في الهضاب والوديان الجبلية ، حيث كانت العجلة الحربية بلا شك قليلة الاستعمال نسبياً ، والراجح أن هذا حدث فيما وراء القوقاز أو حتى في منطقة جبال الكربات . وربما كانت هذه القبائل لا تزال باقية بين من أطلقنا عليهم اسم فلاحي السهوب . ويرى هانكار *Hanchar* أن الحد الشمالي لجبال تيان شان وجبال آلتاي هي المناطق التي عرف فيها الناس ركوب الخيل لأول مرة (ص ٣٩٧) . بيد أن جتمار *Jettmar* يدلل سنة ١٩٥٧ في وضوح وجلاء على أن حجة هانكار الجوهرية التي يستند إليها في هذه المسألة واهية من أساسها (انظر ما سبق) ، أما ركوب حيوان الرنة فقد عرفه الناس في وقت متأخر عن الزمن الذي عرف فيه ركوب الخيل . أما في معظم المسائل الأخرى التي تعرض لها هانكار فإن النتائج الأساسية الهامة التي انتهى إليها تبقى كما هي دون أن تمس .

ولم تتفجر الثورة الحاسمة ـ التي يمكن أن نطلق

عليها اسم بداوة الفروسية - إلا بعد انتشار عادة ركوب الخيل في السهوب الفسيحة في الشمال . والحق إن قبائل « إيران الشمالية » ، بين نهري الفولجا وإيرتش فيما يرجح ، والأسكوذيين وجيرانهم الساكيين ، ما إن أدركت تفوق القتال على ظهور الخيل تفوقاً كبيراً على طريق القتال القديمة ، وبخاصة العجلات الحربية ، حتى تَخلّت تماماً عن حياة الفلاحة في السهوب وتخصصت في تربية الأنعام وبخاصة الخيول . ولعل أهل هذه القبائل أصبحوا حوالي عام ٩٠٠ أو ٨٠٠ ق . م . أول بدو يركبون الخيل ، وأول رماة بالأقواس يمتطون ظهور الجياد (انظر هانكار *Hanciar* ، ص ٣٩٠ وما بعدها) . وكانوا أول من اقتحم البلاد المجاورة ونشروا الرعب والفزع بين السكان المستقرين . ونحن حين نستعمل كلمة بدوي فإنما نقصد بها عادة هذا الضرب من راكبي الخيل . ويمكن القول إن هذا التحول الوبيل لم يغلب على السهوب المكشوفة فحسب ، وإنما انتشر أيضاً في السهوب الشجراء الآهلة بالسكان المشتغلين بالفلاحة . بل هو قد أغرى القبائل المشتغلة بالصيد في

غابة الأشجار المخروطية باصطناع هذه الوسيلة الجديدة من وسائل العيش . وانقسم فلاحو السهوب إلى طبقات اجتماعية متميزة ، وأصبح هذا الفارق الاجتماعي وقتذاك أساساً لظهور زعماء على قدر كبير من الكفاية السياسية والعسكرية في حشد حشود يزداد عددها . ومن الراجح أن يكون الفلاحون والصيادون الفقراء قد أكرهوا على الانضمام إلى « أرستقراطية » مربيّ الخيول . وهكذا نشأ حشد منظم لم يعرف من قبل ، ازداد قوة بالاغارة والنهب والقتل واستعباد الغير من الأهالي والفوز بتأييد تابعين وبخاصة تأييد حشود أخرى من الفرسان بدافع الاعجاب أو الخوف . وليس من شك في أن المناخ الدافىء والحضارة الواحية المهذبة في الجنوب ، التي عرفها بعض العائدين عن طريق عملهم جنوداً مرتزقة ، وكذلك المناخ المعتدل والسهول الفسيحة في الغرب التي تنتهي في رومانيا والمجر ، قد أغرت هؤلاء البدو بالغزوات .

وبعيدٌ أن يكون أسلاف الإسكوذيين في جنوبي روسيا والسيمريين قد تبدَّوا من قبل تبدِّياً كاملاً .

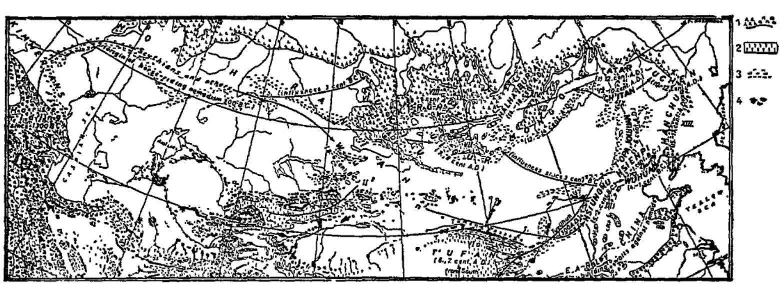
ويبدو أنهم كانوا من فلاحي السهوب ومعهم شعبة رعوية شديدة البأس وعصابات من المحاربين الراكبين الخطيرين . ولعلنا نستطيع في هذا الصدد أن نذكر الميديين القدماء في العهد الذي خلفوا فيه الفلاحين في هضاب إيران . بل إن الأكمينيين لم يتخلوا عن المثل العليا للفرسان وهي« ركوب الخيل والرمي بالسهام وحب الحق » .

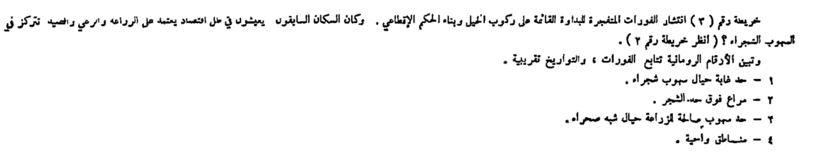
وانتشرت البداوة انتشار النار في الهشيم شرقاً خلال ثغرة زنغاريا على طول سفح جبال آلتاي ، ومما يذكر أن قبائل وو ـ سون التي عاشت على الأرجح في وسط تيان شان وشرقها ، اقتفت آثار « الايرانيين الشماليين » وبخاصة الاسكوذيين ، ويمكننا أن نفترض أن الرعاة والصيادين والفلاحين في السهوب المكشوفة والشجراء المحيطة بمنغوليا اضطروا في تلك الفترة إلى أن يصطنعوا حياة البداوة . ومن المحتمل أن يكون ضغط قبائل وو ـ سون على سكان سلسلة الواحات في مقاطعة كان ـ سو قد أدى إلى قيام حشود الفلاحين بغزوهم الأخير للصين وزونغ *Zhung*

مما أدى إلى انهيار حكم أسرة تشو في غربي الصين (عام ٧٧٠ ق . م) . وأول بداوة يمكن أن نتبيَّنها في أخبار الرواة الصينيين هي البداوة التي عاشت فيها قبيلة هسيونغ ـ نو منذ القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً . ولم تكن هذه القبائل إيرانية ولا من « الأتراك الأولين » . ويقول ليكتي *Ligeti* إن لغتهم كانت ، فيما يبدو ، لا يتحدث بها غيرهم ، وربما كان الأوستياك على نهر ينيسي قد اصطنعوا سمات من لغة قبيلة هسيونغ ـ نو عندما جمع بينهما الجوار . ولقد قبست قبيلة هسيونغ ـ نو ، في موطنها بين الصين القديمة وصحراء جوبي ، مجموعة كبيرة من عناصر ثقافة البدو في شمالي إيران جملة واحدة . وتدل بعض سمات الحياة في قبيلة هسيونغ ـ نو على اعتمادهم من قبل على الصين ، كما تدل بعض السمات الأخرى على أنه كانت لهم علاقات ثقافية قديمة بقبائل منشورية التي تحيا حياة بدائية وإن كانت بعيدة عن البداوة . وخاض الصينيون غمار حروب ضارية استمرت قروناً طويلة دافعوا فيها عن أنفسهم ضد قبائل هسيونغ ـ نو وشيدوا السور العظيم وقبسوا

مرة أخرى جانباً من العناصر الثقافية المستمدة من الايرانيين الشماليين مثل استخدام الحديد والفرسان وارتداء السراويل وتصور السماء على هيئة خيمة . وهناك مثل صيني قديم يقول : « صهوة الجواد تنشىء دولة » .

وتوضح الخريطة رقم (٣) كيف أصابت شرارة البداوة المنظمات القبلية واحدة بعد أخرى على طول المشارف بين الغابة والصحراء شمالي شرق الصين في عهد إمبراطورية هسيونغ ـ نو وبعده . والحق إن الصين ريفاً وحضراً ، وهي نفسها إقليم يتكون من تربة طينية صفراء وسهوب ، قد وازنت الضغط وقاومته أو احتملته أو أصبحت تابعة أو خضعت نوعا ما أو حتى تحولت إلى مرعى أو كادت ، وحدث كل هذا في فترات طويلة تبادلت فيها الدفاع والانسحاب واسترداد الأرض لاستغلالها في الزراعة . ولما كان الغرض من هذه المادة تقديم خلاصة وافية عن تاريخ أصل البداوة فإننا لا نستطيع أن نتناول فيها نشأة الممالك والإمبراطوريات البدوية التي تفاوت





خريطة رقم (٣) انتشار الفورات المتفجرة للبداوة القائمة على ركوب الخيل وبناء الحكم الإقطاعي . وكان السكان السابقون يعيشون في ظل اقتصاد يعتمد على الزراعه والرعي والصيد تتركز في السهوب الشجراء ؟ (انظر خريطة رقم ٢) .

وتبين الأرقام الرومانية تتابع الفورات ، والتواريخ تقريبية .

١ – حد غابة حيال سهوب شجراء .

٢ – مراع فوق حد الشجر .

٣ – حد سهوب صالحة للزراعة حيال شبه صحراء .

٤ – مناطق واحية .

عمرها ، والتي رأت في نزعاتها مثالاً تحتذيه في العقيدة الشمولية والكونية التي تعتنقها الامبراطورية الصينية لادارة دفة الحكم   كما أننا لا نستطيع أن نتناول تلك الهجرات الهائلة إلى الغرب والغزوات العظيمة له والتي كانت المنطقة الجافة أثناءها بمثابة ممر اقتحم منه الغزاة بلاد الحضارة الواحية القديمة في جنوبي غرب آسية أو نفذوا إلى بدايات الحضارة الغابية في أوروبا الوسطى والغربية إبان القرون الوسطى حيث كانوا سبباً من الأسباب التي دعت إلى هجرة الأمم .

وقضت كل هذه الحركات على ما كان قد تبقى من فلاحة السهوب في سهول السهوب المكشوفة والسهوب الشجراء . ومهما يكن من أمر فإن الأقاليم التلّية والجبلية المحيطة بمنغوليا في الشمال ـ وفيها نموذج للسهب والمرج والغابة ـ قد أصبحت مناطق يلجأ إليها وينشأ فيها قوم عاشوا على الصيد وتربية الماشية والفلاحة أيضاً (انظر *Lattimore*) . والواقع أن أطلال سور دفاعي يفصل الطرف الشمالي الشرقي

لسهـوب منغـوليا قرب نهـري كان ، وأرغـون (Plaetschke) تدل علـى أن مثـل هؤلاء القـوم المشتغلين بالفلاحة كانوا ولا شك في بعض الأوقات جمعاً غفيراً . وفي وسعنا أن نتتبع على الخريطة رقم (٣) كيف ظهـرت مراراً وتـكراراً نويّات جديدة لتكوين حشد بين الجماعات المشتغلة بالصيد والرعـي والفلاحة الذين عاشـوا حياة بسيطـة في ظروف قاسية وذلك في المناطق الوعرة المتاخمة للغابـة . وبـين هؤلاء نجد رجلاً مقتدراً رزق صفات الزعامة ، يدبر شئون حشد غير متجانس بالاغارة والسلب والظفر بأتباع . وكان اسم عشيرة لم يعرف من قبل إلا قليلاً ، يصبح أحياناً علَماً على دولـة نامية أو حتـى على إمبراطـورية مترامية الأطراف .

وقد وصل إلينـا ـ عن طريق الصدفـة السـعيدة ـ « تاريخ سري للمغول » وهو قصة حياة جنـكيز خان وعشيرتـه وكيف أسس إمبراطـورية المغـول ، كتبـه مغولي عام ١٢٤٠ ميلادية باعتبـار أنـه تقـرير مباشـر صريح . وكانت العشيرة شبه المقيمة والتي تعيش في جبال كنتاي لا تملك في عهد أجدادها إلا بضعة خيول

وعددا قليلاً من الماشية والأغنام . وكانت تعرف النزر اليسير من الزراعة وتقطف الخضراوات البرية . وكان للصيد على ظهر الجواد شأن أي شأن . ومهما يكن من أمر فإن الجيران المقيمين في السهوب المكشوفة خارج الجبال كانوا بدواً خلَّصاً يمتطون ظهور الجياد ويرعون قطعانا كبيرة من الماشية والأغنام . وقد أصبح بعضهم مدمناً على الاغارة ومنغمساً في مناعم الحضارة التي ألفوها أثناء غاراتهم . وكانت عشيرة جنكيز خان البدائية تكمن في مواضع خفية من الوديان والغابات الواقعة بين تلال كنتاي وتسطو على البدو الأثرياء المقيمين في السهول . وكانت الغنيمة من الخيول والماشية والأغنام وسبايا من النساء والأطفال والأرقاء . وهكذا تحولت العشيرة برمتها إلى حياة البداوة وأخذت تقوى وتشتد بكسب تابعين جدد وأصبحت جماعة نسبت إلى عشيرة الزعيم ، وكان بأسها يشتد بمقدار ما يستطيع الزعيم السلب والنهب . وفي نهاية الأمر فقدت قبائل وشعوب معروفة استقلالها بل اسمها وابتلعتها الوحدة « المغولية » العظيمة .

ويمكن افتراضاً القول بأنه ليس ثمة إقليم على حافة المنطقة الجافة لمنغوليا ، التي كانت يوماً مهداً لبداوة مثل هذه نمت بسرعة ثم اصطبغت تماماً بصبغة البداوة ، عاد بحال إلى تكوين رابطة بدوية جديدة .

واتسعت رقعة المساحات المهجورة في المنطقة الجافة إلى درجة مخيفة على اثر الغارات المدمرة وهجرات البدو الراكبين. واندثرت فلاحةالسهوب في أوراسيا اللهم إلا في المناطق الجبلية ، إذا لم نُدرج في هذا التعبير الزراعة في شمالي الصين وأجزاء من الهند . وضعف شأن الحضارة الواحية ضعفاً مشؤوماً وتضاءلت إلى حد كبير . صحيح أن الدول البدوية الكبرى قد أسهمت في تبادل المواد والأفكار عبر القارة ، ولكن هذا التبادل كان من الممكن أن يكون أقوى من ذلك ، ولا شك ، لو تم في تطور سلمي . ومع ذلك فإننا لا ندري إلى أي مدى يكون فيه الصبر على المكاره ضرورياً لكي ينجو ما هو سليم وصالح في ذهن الانسان من العطب والفساد .

[فسمان وكوسماول *Wissman and Kussmaul*]

ج - البداوة في الجزيرة العربية .

هناك دلائل على أن الجمل البري ذا السنام الواحد (الهجين البري) كان يعيش في شمالي إفريقية والشرق الأدنى حتى الألف الثالثة ق . م ، وأنه انقرض من بعد ولم يعد له وجود إلا في الجزيرة العربية . ولا نعرف متى انتهت عملية الإبادة التي تعرض لها في شمالي إفريقية .

وقد عثر على حبل مصنوع من وبر الجمل يرجع إلى الأسرة الثالثة في مصر . وتظهر صورة للهجين بين الحيوانات البرية في نقش مصري بارز نشره جيمس (١٩٥٥) . ونستطيع أن نستدل من طراز هذا النقش على أنه ينتسب إلى المملكة الجديدة . والحق إن الجمل لم يستأنس في وادي النيل لعدم ملاءمة المناخ لصحته ولا في أي إقليم صحراوي

بشمالي إفريقية . وقد تناول فالتز **Walz** هذا الموضوع في بحث مسهب .

ويسوق أكاثرخيدس وأرتميدورس أخباراً توحي بالثقة عن ساحل الجزيرة العربية الواقع على البحر الأحمر . وهما يقولان في هذه الأخبار إن هناك فيما وراء الساحل لشمالي الحجاز الحالي قطعاناً من الحيوانات البرية و « الماشية » وحميراً وحشية وجمالاً بريةً وأيائلَ وغزلاناً وكذلك أسوداً كثيرة ونموراً وذئاباً . ولعل الأوصاف الثلاثة كلها نقلت من مصدر واحد ربما كان هو أرسطون *Ariston* حوالي عام ٢٨٠ ق . م . ويعتقد موسيل*Musil* أن هذه الجمال لم تكن برية حقاً فيما يرجح (وهو يخطىء فيقول عن الحمير الوحشية وأنصاف الحمير إنها بغال ، وهو على حق في قوله إن البغال لا يمكن أن تكون متوحشة) . وقد أثبت ليتمان أن الرسوم المنقوشة على الصخور التي عثر عليها أثناء البحث عن النقوش التي رسمها آل ثمود على الصخور تدل على وجود حيوانات صيد في أعداد كبيرة : غزلان ، و « ماشية برية » ، (بقر

الـوحش) ، ووعـول ، وخنـازير برية ، وأرانـب برية ، ونعام ، وأسود ، وذئاب ، وضبـاع ، علاوة علـى حيوانـات مستأنسـة : جمـال ، وخيول ، وكلاب . ولم تظهر الماعـز في هذه الرسـوم إلا مرة واحـدة ، ولا توجـد بينهـا صور أغنـام أو ماشية مستأنسة . ولا بد أن البدو في المنطقـة الواقعـة بين مَدْيَن وحـوران كانـوا من الصيادين المتحمسين للطراد ، بيد أنهـم لم يهتمـوا كثيراً برسـم أغنامهـم (ماعز وأغنام) . وكذلك يتحـدث إكسينوفـون عن حمير وحشية وماشية برية (بقر الـوحش) ونعـام ، وعـن طير الحبـارى ، ويصف صيد حمير الـوحش ومطاردتها على ظهور الخيل ، ومن ثم يحتمل وجود هُجن برية في صحـراء الجـزيرة العـربية في القـرن الثالث ق . م .

ولا نستطيع أن نقول أين استُؤنس الجمل ذو السنام الواحد في الجزيرة العربية لأول مرة ويذهب أولبرايت إلى أن هذا حدث في جنوبي الجزيرة العربية في مكان يقع قرب الصحراء الجنوبية الكبرى (سنة ١٩٥٨ ، تعليق رقم ٥) . وليس هناك مايشير إلى أن الهجين عرف

من حيث هو حيوان مستأنس قبل القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وجاء في سفر القضاة (الاصحاحان ٦ ـ ٨) أن أهل مدين والعمالقة وأبناء الشرق قد قاموا برحلات على ظهور الجمال عبروا فيها نهر الأردن إلى فلسطين ، حدث هذا في النصف الأول من القرن الحادي عشر ق . م تقريباً ، ويرى آلبرايت وفالتز *Walz* أن هذا يعد أقدم تاريخ ذكر فيه الهجين المستأنس ، وهو تاريخ إدخال الحديد إلى فلسطين . ويرى آلبرايت أن الهجين استُؤنس فعلاً في الجزيرة العربية بين القرنين السادس عشر والخامس عشر والقرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد . ولعل انتشار الساميين إلى جنوبي الجزيرة العربية يرجع إلى تاريخ أقدم من هذا التاريخ ، إذ تدل النقوش البارزة التي سجلت حملة حتشبسوت على بلاد البونت (حوالي عام ١٤٩٥ ق . م) على أن هذا الجنس الفرعي المستشرق من شعوب البحر المتوسط ، ولا ريب في أنه كان جنساً عريقاً جدّاً بين الساميين في شمالي الجزيرة العربية ، وقد كان ممثَّلاً وقتذاك بالفعل في جنوبي الجزيرة العربية ، بين

الطبقة الحاكمة على الأقل وهذا يتفق مع رأي كونتي روسيني *Conti Rossini* القائل بأن أسماء زعماء بلاد البونت التي ورد ذكرها في نقوش حتشبسوت ورمسيس الثاني كانت سامية . وأعتقد أن القول بأن بلاد البونت كانت على الأقل تقوم إلى حد ما على الجانب العربي من البحر يصبح أيضاً أمراً مرجَّحاً حين نستخلص بعض النتائج من الملامح الجسمانية لأهالي البونت كما تظهر في النقوش المصرية البارزة في عهد متقدم يرجع إلى أوائل عصر الأسرة الخامسة (سهوري ، انظر *Kees* ، ص ٥٩) وهذه الملامح لا تختلف عن ملامح المصريين (*Poech* عام ١٩٥٧) .

ويرى و . ف . آلبرايت أن الحضارة بدأت حوالي القرن الخامس عشر ق.م في المناخ الصحراوي على طول السفح البعيد عن البحر لهضاب اليمن . وهو يفترض أن هذا حدث بسبب نزوح الناس من الشمال . والتاريخ الذي عيَّنه يقوم إلى حد ما على أساس ما كشفت عنه أعمال التنقيب في آثار هجر بن حُمَيْد (انظر ما يلي) من أن ما بين

أربعة أمتار وخمسة أمتار من الغرين الصالح للزراعة (القابل للري) قد ترسبت قبل إقامة هذه المحلة ، وكانت إقامتها حوالي عام ١٠٠٠ ق . م . وبينما نجد أن ثمانية أمتار من الغرين قد ترسبت أثناء قيام هذه المحلة من حوالي عام ١٠٠٠ ق . م إلى حوالي عام ٢٠٠ م فإن الأربعة أو الخمسة الأمتار السفلى منها قد تمثل فترة تقدر بحوالي خمسمائة سنة .

ومن الغريب أن ركوب الجمل وامتطاء صهوة الجواد على السواء يبدو أنهما قد بدآ في الانتشار في النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد ، وعرف الناس ركوب الجمل من الجزيرة العربية ؛ أما امتطاء صهوة الجواد فلعلهم عرفوه من الجبال الواقعة فيما وراء القوقاز . ويرى هانكار أن زيادة الطلب على دواب الجر والحمل لاستخدامها في نقل المعادن قد يكون حافزاً على التوسع في تربية الخيول في الأقاليم الجبلية (ص ٣٩٧) . ولا بد أن تكون تربية الـ ل ذات السنام الواحد في الجزيرة العربية قد نشطت نظراً لتزايد الطلب على نقل السلع بين جنوبي الجزيرة العربية من جهة وبلاد البحر المتوسط وأرض

الجزيرة من جهة أخرى ، أي نقل اللّبان والمر والأحجار الكريمة والذهب من جنوبي الجزيرة العربية ، ونقل البضائع الواردة من الهند وشرقي إفريقية من الجنوب ، وكذلك نقل الأقمشة ومنتجات الحضارة والتحف ، وربما نقل السلع الحديدية من الشمال . وليس من شك في أن إدخال الجص الذي لا ينفذ منه الماء في أعمال الري ، واستخدام الصهاريج في جنوبي الجزيرة العربية ، وهما اللذان شاع استعمالهما من قبل في سورية منذ عام ١٢٠٠ ق . م تقريباً ، قد دفع الناس إلى تطوير الزراعة « ولعل هذا لم يحدث قبل القرن العاشر ق . م » .

وبينما تدل أعمال التنقيب التي قام بها ن . كلوك *N. Glueck* في عزيون جبير على أن أخبار الرحلة البحرية التي قام بها سليمان وحيرام إلى أرض الذهب في أوفير تشير إلى حقائق تاريخية ، ولا بد أن لقصة ملكة سبأ التي تروى في معرض الحديث عن الحملات على أوفير في سفر الملوك (الإصحاح ٩ - ١٠) بعض الأساس التاريخي (*Albright* سنة ١٩٥٨ ، ص ٣) وهي تبيِّن على الأقل أن قوافل

الجمال كانت تسافر بين جنوبي الجزيرة العربية وفلسطين في القرن العاشر قبل الميلاد . وتذكر أسماء سبأ وأوفير وحَوِيلا واحداً بعد الآخر باعتبارهم أشقاء في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ، علاوة على ذكر اسم حَضَرْ ماوِث بين أبناء يُقْطَان بن عِيبر . وفي وُسعي أن أؤيد النظرية القائلة بأن أرض الذهب في أوفير كانت في جنوبي غرب الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر : في عَسير حول ذَهَبان . وفي بلاد الصومال ، حيث جعل بعض المؤلفين أوفير واقعة فيها ، نجد أن بروز الطبقة الصخرية البلورية وكتلها البركانية وعروق الذهب أصغر مما هي عليه في عسير بكثير . ومن شاء المزيد عن إرسال سبأ الذهب فليرجع إلى سفر الملوك الأول ، وسفر أشعياء وسفر حزقيال (الإصحاح ٢٧ ، آية ٢٢) والمزمور ٧٢ .

وأحسن تحقيق عن أرض الذهب في حَويلا الواردة في سفر التكوين هو في رأيي ، ورأي نيبور *Niebuhr* وريتر *C. Ritter* وشبرنكر *Sprenger* وموريتز *Moritz* وآخرين ، القول بأنها هي خَوْلان . وقد عُرف هذا الاسم من النقوش ومن الهمداني ، ولا يزال مستعملاً

إلى اليوم . وشمالي خولان متاخم لأوفير ، أما جنوبي خولان فإنه ملاصق لسبأ . وقد ذكر أكاثرخيدس صراحة أن شمالي خولان كان مشهوراً كل الشهرة في اليونان بمناجمه الغنية بالذهب ، ولعل هذا كان حوالي عام ٤٠٠ ق . م .

ويعد عرب الجنوب ، في سلسلة النسب الواردة بسفر التكوين (الاصحاح ١٠) من سلالة كل من كوش وعيبر (عابر) . أما من انحدروا من صلب عيبر وابنه يُقطان فقد استوطنوا بقعة تمتد حتى « مسَفار ، الجبل القائم جهة الشرق » . والغالب أن سفار هو ظفار قصبة مملكة حِمْيَر في اليمن ، وإن كانت هذه البلدة قد شيدت على الأرجح عام ١٠٩ ق . م تقريباً (انظر ما يلي) عندما احتلت حِمْيَر هذا الإقليم . وهي تقوم على تل وسط الهضاب في جنوبي غرب اليمن وليست « جبلاً واقعاً جهة الشرق » . وتكاج *Tkach* وآخرون ، أن سفار كانت في ظَفار (أو ضُفَار) وإني لأحسب أنهم أصابوا بقولهم هذا . وقد كان هذا الاسم يطلق على بلدة وإقليم شرقي

حضرموت وبلاد مهرة ، وهي على أية حال لا تعرف بهذا الاسم في نقوش الجاهليـة أو كتاباتها ، وإنما عرفت به في عهد الجغرافيين العرب الأوائل . وهي خير إقليم ينتج اللُّبان في جنوبي الجزيرة العربيـة . والحق أن الطنف والرأس الجبليين الشرقيين في هذا الإقليم يعاَن آخر إقليم كانت تنطلق منه السفن قديماً من الساحل نحو الهند بقوة الريح الموسمية ، كما أنه آخر منطقة في جنوبي الجزيرة العربيـة تجاه الشرق يسكنها قوم مستقرون من غيـر البدو . وإلى الشرق منها تمس الصحراء الكبرى البحر حتى عُمان .

وأعتقد أن في وسعنا أن نستنتج « قائمة الشعوب » تقصد بـ « بني يُقطان » الشعوب الزراعية في جنوبي الجزيرة العربية (خريطة رقم ٤) وأرى أن ما ورد في سفر التكوين يدل على أن البدو الذين كانوا يركبون الجمال في وسط الجزيـرة العربيـة وشماليها الغربي قد فُهم أنهم أبناء يَشْماعيـل ، وقد جاء في سفر التكوين وفي سفر القضاة « وسكنوا [بنو يشماعيـل] من حويـلا إلى شور ، التي أمام مصر

حينما تجيء نحو أشور » . ويبدو أنهم عاشوا في مثلث السهب الصحراوي بين الأقاليم الزراعية في جنوبي الجزيرة العربية (خولان) ومصر وأشور .

وليس من شك في أن الجند الذين امتطوا ظهر حيوان قد تكيَّف تكيفاً تامّاً بظروف الصحراء ـ حيوان قادر على تحمل العطش وقطع مسافات طويلة بسرعة كبيرة ، مثل الجمل ـ كانت لهم اليد الطولى في القتال ضد أعدائهم الذين يستخدمون العجلات الحربية التي تجرها الخيول . ويقول آلبرايت (*Stone Age : Albright* عام ١٩٤٦ ، ص ١٢٠ عن *Arch.* سنة ١٩٥٣ ، ص ٩٧) : « إن البداوة العربية رهن باستئناس الجمل الذي يتيح للبدو أن يعتمدوا في معيشتهم تماماً على قطعانهم من الجمال ، يشربون لبنها ويطعمون من خاثره ويأكلون لحمها ويظعنون في أقاليم لا يعيش فيها سوى الجمل ، ويقومون برحلات سريعة تستغرق أياماً عدة ، إذا دعت الحاجة ،في صحراء خالية من الماء . والجمل يأكل الأعشاب والعواسج في الصحراء مما تنفر منه حتى الأغنام والماعز » . والجمل يقطع المسافات الطويلة بسرعة تزيد على ثلاثة أمثال السرعة التي يقطعها بها

الجواد . ويستطيع أن يقطع ٣٠٠ كيلومتر في يوم واحد ، وقد يحمل الجمل في القافلة على ظهره ما يعادل ٢٠٠ كيلوجرام ، أما الجواد فإن ما يحمله لا يزيد على ١٥٠ كيلوجراماً . ويمكن القول إن الجزيرة العربية لم تربّ سلالات من الجِمال للنقل والركوب في الأراضي المنخفضة فحسب بل ربت أيضاً سلالات من الجمال الجبلية تستطيع السير في المسالك الوعرة بعض الوعورة ، كما هي الحال في عسير أو في بلاد العوالق وحضرموت (تجربتي الخاصة) . فإذا بلغت قافلة للجمال من السهول إلى عقبة (ممر) في الجبال فلا مناص من أن يستبدل بها جمال من سلالة أخرى قرب سفح العقبة . ويبدو أنه ليس في الجزيرة العربية بقعة شديدة الرطوبة لا تصلح فيها تربية الجمال إلا المنحدر الغربي من هضاب اليمن . ونرى لزاماً علينا أن نضع في الاعتبار أن الحمار (وربما حمار الوحش) كان هو الحيوان الوحيد الذي كان يُستخدم في النقل في الجزيرة العربية قبل استئناس الجمل (انظر ما سبق) .

ومن الغريب أن الجمل البَلْخي ـ الذي كان قد

استُـؤنس في طوران قبـل الزمـن الـذي استُـؤنس فيه الْهَجين الوديع في الجزيرة العربية بما يقرب من ألف عام ـ على وجه التحقيق لم يصبح له قط شأن يذكر في مجال الركوب واقتصرت أهميته على النقل .

ويبدو أن استئنـاس الهجين واكب استخدامـه في الـركوب ، ولا يمـكن أن يقـال هذا عن أي دابـة أخرى . ولمـا كانـت أعمـال التنقيب لم تهبـط إلـى الطبقـات التـي ترجـع إلـى العصـور الأولـى ، فإن معلوماتنا لا تقوم إلا على المعلومات التاريخية . ولا تستطيع بعد أن نعلم أصل الدافع على استئناس هذا الحيوان. ويعـارض فالتـز *Walz* رأي فايسنـر *Wiesner* ويصر على أن استئناس الجمل ذي السنام الواحد كان مستقلاً تمامـاً عن تربية الجمـل البلخـي والجـواد . ومهما يكن من أمر فإن المستحدثات المشابهة لذلك نادرة على ما يبدو في عصر ما قبل التاريخ وفي العصر التاريخـي . وكان الجـواد مستخدمـاً في بلاد ما بين النهرين منذ حوالي عام ٢٠٠٠ ق . م . على الأقل ، بيد أن الجنـد الـراكبين علـى ظهـور الجياد ! يتـردد ذكرهم هناك قبل عام ١١٣٠ ق . م (بختنصر الأول

ملك بابل) . ولما كان الجمل ذو السنامين قد ربي في جنوبي طوران منذ ما يقرب من عام ٢١٠٠ ق . م على الأقل ، فلا يبعد عن الاحتمال ألا يكون قد وصل إلى بلاد ما بين النهرين وإلى أبعد منها جنوباً من آن لآخر في تلك الفترات المضطربة من بداية الألف الثانية ق . م ومنتصفها . ولعل هذا كان حافزاً لاستئناس الجمل ذي السنام الواحد .

وعثر و . ف . آلبرايت على رأس جمل يمثل جزءاً من جرة من الفخار أثناء التنقيب في ثار هجر بن حُمَيْد في بيْهان (قَتَبَان قديماً) بجنوبي الجزيرة العربية ، وقدر أنه يرجع إلى القرن الثامن (أو القرن التاسع) تقريباً ق . م (*Van Beek* سنة ١٩٥٢ ، ص ١٧ ؛ *Walz* سنة ١٩٥٦ ، حاشية رقم ٥٤) . وجدير بالذكر أن نشر تاريخ طبقة سفلى في بلاد هجر بن حميد مقدَّر بطريقة الكربون الاشعاعي يبين أن التأريخ الخطّي الأولي الذي وضعه آلبرايت *Albright* لحروف اسم متشابكة عثر عليها أثناء عمليات التنقيب التي كان يقوم بها ليس سابقاً كثيراً على التاريخ الحقيقي ، بل لعله متأخر عنه بقرن كامل .

وثمة نقش بارز يمثل راكبا لهجين من تل خلاف يرجع إلى القرن التاسع . ويبدو أن أول سجلات بالخط المسماري عن البدو الذين يركبون الجمال تمثل « البدو الاراميين » وهم يحاربون قِبَلاً تابعاً لأشور ناصر بال عام ٨٨٠ ق . م ، وحدث بعد ذلك بقليل أن حارب « جندب العربي » من ناحية عريبي *Aribi* الملك سلمانصر الثالث بجيش حشد فيه ألف جمل . وتشمل مادة « العرب » (القسم الأول) التي كتبها أ . كرومان *A. Grohmann* موجزاً عن أرض عريبي والعرب في القرنين من التاسع إلى السابع ق . م . وقد اعتمد فيها على معلومات سجلت بالخط المسماري . وكانت عريبي إبان تلك الفترة هي الطرف الشمالي الأقصى من الجزيرة العربية بين الشام وبلاد ما بين النهرين ، وتضم تدمر ووادي سرحان ، والعرب هم سكانها من أهل البادية والواحات . ويرى كرومان *Grohmann* وموسيل *Musil* أن الواحة الوسطى أدومّاتو (سنة ١٩٢٧ ، ص ٥٣١ وما بعدها) هي دومة الجندل في الجوف . أما « الملوك » فهم من زعماء

القبائل المستقرة في الواحات ومن قبائل البدو . وقد ورد أيضاً في سفر أرميا (الاصحاح ٢٥ ، آية ٢٤) ما يؤيد هذه الأمور : « وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيف الساكنين في البرية » . (وأول ذكر للأعراب في التوراة ورد في سفر أشعياء في أواخر القرن الثامن ق . م) . وقد ثبت من آخر اكتشافات لفيدنر *Weinder* في شرقي جزيرة العرب أن بازو التي وجه إليها أسر حدّون حملة طويلة عام ٦٧٦ ق . م تقع في أرض دِلْمون المناوحة للساحل لا في وادي سِرْحان .

ومن الواضح أن طرق القوافل ، وبخاصة « طريق البخور » الممتدة من غزة على البحر المتوسط ومن دمشق عن طريق مَعان (بحث موسيل *Musil* سنة ١٩٢٦ ، ص ٢٤٣) وديدَان (العُلاَء) ويَشْرب (المدينة) إلى رَجْمة (نَجْرَان) ومَعين وسبأ . كان لها دور سياسي هام كما حدث عام ٧٣٢ ق . م ، عندما انضمت سَمْسي ملكة عريبي إلى تحالف كبير ضم دولة سبأ ، وملك دمشق وواحة تيماء الهامة ، وقبائل قرب تيماء ودُيْدان ضد تكلات بلصر الثالث ؛ وأول عاهل لسبأ ذكر اسمه في النقوش المسمارية ،

ولعلـه مُكَرَب (ملك كاهـن) يأتـي بالجـزية إلــى سرغون الثاني عام ٧١٥ ق . م . وتدل الاتاوات التي كان يتلقاها على سبيل الجزية الملوك الأشوريون في هذه الفترة من مختلف ملوك وملكات النصف الشمالي من الجزيرة العربية ، على أن حركة القوافل التي تأتي من مسافة بعيدة كانت ولا شك كبيرة . وكانت تنقل الماشية والذهب والفضة والرصاص والحديد وجلـود الفيلة والعاج والقماش (*Caskel* سنة ١٩٥٤) .

ويجب أن نؤكد أن جنوبي الجزيرة العربية الـذي كانت تمثله سبأ منذ القرن العاشر علـى الأقـل كان إقليماً آهلاً بالسكان المشتغلين بالفلاحة ولم يكن فيه إلا عدد قليل من البدو لا وزن لهم ، وكان إقليماً ينتج السلع العطرية وبخاصة اللبان ، وليس من شك في أن جنوبي الجزيرة العربية قد أدخل السلـع الهنـدية وسلع شرقي إفريقية إلى موانئه ، ولا بد أنه كان من قبل قد احتكر إلى حد ما حركة المـرور في « طـرق البخور » الموصلة إلى الشمال الغربي وكذلك حركة المرور بوسط الجزيرة العربية إلى الشمـال الشرقـي (خريطة رقـم ١) أثنـاء هذه الفتـرة . وربمـا كان الكلدانيون قد عاشوا في عمـان أثنـاء تلك الفتـرات

وتوسطوا بين سبأ وبلاد ما بين النهرين (والهند ؟) قبل احتلالهم لبلاد ما بين النهرين ، حيث تولى الحكم الملوك الكلدانيون عام ٦٢٥ ق . م .

ويرى آلبرايت أنه لم يكن ثمة وقت أنسب لتوسع سبأ في التجارة غرباً في الحبشة من القرن العاشر ق . م . تقريباً . وكانت « مصر ، التي كانت تتمتع وحدها فيما مضى بحقوق التجارة مع الحبشة وبلاد البونت عن طريق البر والبحر ، عاجزة عن الاحتفاظ بعلاقاتها التجارية مع الجنوب بعد سقوط الإمبراطورية الجديدة » . ويرى آلبرايت أن النقوش السبئية التي تقرأ من اليسار إلى اليمين ثم بالعكس في معبد أوَمْ أو معبد يِحَا الحديث القائم على هضبة شمالي الحبشة شرقي أكْسُوم ترجع من حيث خطها إلى القرن الخامس (خطاب من *W. F. Albright*. مارس سنة ١٩٥٧ ، وانظر *Conti — Rossini* ص ١٠٢) . وهناك نقش على قاعدة تمثال قديم جدّاً عُثر عليه حديثاً في مَقَلِّي يبدو أنه أقدم عهداً من ذلك إلى حد ما . ومن ثم فإن القرن الخامس ق . م . قد لا يعد

متقدما جدّا حتى في التواريخ الحديثة لبيستون A .F .L .Besston وبيرن Pirenne اللذين يؤكدان « تجدد شباب » التاريخ القديم لجنوبي الجزيرة العربية . وكان استعمار سبأ لهذه المنطقة قد توطدت أركانه من قبل في هذا الإقليم آنذاك . والراجح أن اسم معبد يحَا الحديث أو أوم ، كان يطلق أيضاً على المعبد البيضاوي الكبير الذي شيدته الدولة لآلـه سبأ قرب مأرب . وجاء في نقش مشهور تقرأ فيه الكتابة من اليسار إلى اليمين ثم بالعكس حفر على هيكل البخور في مَقَلّي بالحبشة عبارة تقول إن « مُكرِّب دَعْمَة » (موضع بالقرب من أكْسُوم) وسبأ » يكرّس (الهيكل ؟) للألْمقَه ، وهو الآله الأكبر الذي كان يعبد في سبأ بجنوبي الجزيرة العربية . ويرى ريكمانز J .Ryckmans أن وسط سبأ كان يقع في جبال اليمن الجنوبية الحالية وهضابها حول جبل بَعْدَان وجبل حُمَيم (كانت ذات بَعْدان وذات حُمَيم أهم ربّتين من ربّات الشمس في سبأ) وأن إقليم مأرب في الشمال الشرقي ومنطقة شمالي الحبشة في الغرب قد

استعمرتا من هذه المنطقة وذلك أثناء فترة سابقة للعهد الذي عرفت فيه لأول مرة النقوش السبئية في مأرب وصِيْرواح .

ويرى كليزر Glaser وفون فيسمان هوفنر von Wissmann Hoefner. أن قَنَا وعدن ، وهما خير ميناءين طبيعيين في جنوبي الجزيرة العربية على المحيط الهندي ، قد أطلق عليهما الاسمان كِنّي وعِيدن في سفر حزقيال الاصحاح ٢٧ ، آية ٢٣ (في أوائل القرن السادس ق . م) . ويقول سفر حزقيال « حارَان وكنِّي وعِيدن » (في الماسورة) « تجار شبأ » أو حسب الترجمة السبعينية « وكانوا تجارك » . وقد أمكن التعرف على هذه الأمكنة الثلاثة كلها في الغالب بشمالي بلاد الجزيرة حيث يوجد مكان قديم مشهور يعرف باسم حاران . ويذكر سفر أشعياء وسفر الملوك الثاني حاران الشمالية علاوة على بِنِي عِيدان ويقول : « جوزان وحاران ورصِف (في تدمر) وبِنِي عِيدن الذين في تَلِسّار » ، بيد أن الإدريسي يقول أن حارَان

القرين في جنوبي الجزيرة العربية بين خولان الشمالية و« بِيشَة بُعْتان »(وهذا الاسم تحريف لكلمة بيش ، وهذا الموضع في أغوار تِهامة شمالي الحد الشمالي الحالي لليمن في مكان ما قرب « أبو عريش » الحالية . وذهب ريتر وبوشنك Buesching إلى أن هذا الموضع هو حاران التي ذكرت في سفر حزقيال . والمشكلة هي أن قُدامة وابن خرداذبة لا يذكران مكاناً بهذا الاسم على ذلك الطريق بل يذكران بدله العُرْش (أبو عريش) . وإني لأشك في وقوع خطأ ما في نص الادريسي . ولكن هناك أماكن شتى باسم « حرن » وردت في النقوش القديمة لجنوبي الجزيرة العربية ، وهي : حِرَان قرب قَعْطَبة شمالي عدن ، وحِدران جنوبي غرب مَعين ، وحِران شمال ذَمار . ولعل المترجمين السبعينيين (للتوراة) قد حرّفوا النص من « تجار من سبأ » إلى « كانوا تجارك » لأنهم عرفوا حاران وعيدن الشماليتين لا الجنوبيتين ولذلك لم يدركوا المعنى المقصود . وفيما يختص بعبارة « تجار من سبأ » فإن على المرء أن يضع في الاعتبار أن سبأ كانت

دولة لا مدينة وأن الأماكن الثلاثة التي تردد ذكرها قد تكون من هذه الدولة .

وجاء في سفر حزقيال (الاصحاح ٣٨ ، آية ١٣) : «شبا وددان وتجار ترشيش » (تارتِستوس أو سردانية) وهذا يدل على الثغور (مدن الحدود) المقابلة للأرض المعروفة التي وردت في سفر حزقيال (دِدان هي دَيْدَان التي وردت في نقوش جنوبي الجزيرة العربية) .

وإذا وضعنا في الاعتبار هذا الموقع الهام لجنوبي الجزيرة العربية في هذا العهد وتوسطه لأقدم منطقة للضاربين في البحر ، وهي منطقة المحيط الهندي ، فإن علينا أن نضع نصب أعيننا أن موطن البداوة التي تعتمد على الابل في شمالي الجزيرة العربية ووسطها كانت تحيط به بلاد زراعية متمدينة من كل الجوانب التي لا تقع على البحر .

ولم يستطع التغلب على المشاق التي يتعرض لها من يجتازون الصحراء التي تتباعد فيها المسافات بين موارد

المياه إلا بعد استئناس الجمل . وكانت الطرق الصحراوية التي لها أهمية قصوى بالنسبة لحركة مرور القوافل هي تلك الطرق التي تصل ما بين بلاد النهرين وسورية . وقد أمكن أيضاً التغلب بسهولة على مشاق اجتياز الجزيرة العربية من بلاد ما بين النهرين ومن سواحل البحر المتوسط إلى النجاد الخصبة في جنوب الجزيرة العربية بفضل قوافل الجمال . وقد أصبحت العيون والآبار في الجزء الشمالي من الجزيرة العربية مهمة بصفتها محطات للقوافل ومراكز تجارية وسياسية . ولما كان البدو يربون الجمال اللازمة للقوافل فإن قبائلهم اهتمت بتوفير الهدوء والسلام لحركة المرور ورأوا أن من الأوفق لهم أن ينضموا إلى أحلاف يعقدونها فيما بينهم وإلى أحلاف مع الممالك في المدن الواحية على الطرق الرئيسية .

ولعل شمالي غرب الجزيرة العربية ، وهو يشمل الجزء الشمالي من طريق البخور الممتد من دَيْدان إلى غزة ، قد أصبح منذ عهد تكلات بلصر الثالث (٧٤٨ ـ ٧٢٥ ق . م .) أكثر ارتباطاً بأشور ثم

ببابل الجديدة بعد ذلك عقب كل غزوة . ويبدو أن ما قام به نبونئد ملك بابل من غزو لتيماء عام ٥٥٠ ق . م . وحكمه لها ثماني سنوات وإنفاذه حملة وصلت إلى يثرب ، كان من الأهمية بمكان بالنسبة لتطور « العرب » الثقافي والديني ، فقد شيّد قصراً ومعبداً في تيماء . وجعل هذا المكان مركزاً لديانة عريقة في القدم وعبادة للاله سِيْن رب القمر الآرامي ، وربما كان قرص الشمس المرتكز على الهلال كان إلى ذلك الرمز الأكبر لهذه الديانة . ولا بد من القيام بأبحاث تُميط اللثام عن وجوه التشابه الوثيق بين هذه العبادة والعبادة التي كانت قائمة لهذا الاله في جنوبي الجزيرة العربية والحبشة . وكان سين المعبود الرسمي في حضرموت منذ أن دونت أقدم النقوش في هذه الدولة . واستبدل عيزانا ملك الحبشة بالهلال وقرص الشمس الصليبَ على سكته حين تحول إلى المسيحية في القرن الرابع الميلادي .

وقد يكون المركز الاستثنائي الذي حظيت به تَيماء إلى حين ، حافزا لدول المدينة الأخرى في واحات

صحـراء العـرب ، إلـى المشــاركة إلـــى حد ما في حضارات البلاد المحيطـة بهـا في الشمـال الشرقـي والشمال الغربي والجنوب ، وقد أخذت في الوقـت نفسـه تحـاول الاحتفــاظ من جديد بقــدر معين من الاستقلال أو إعادة توطيد أركانه . وقـد استخدمـت خطوط مختلفة وطـورت . بل إن أفـراد العشائـر من قبائل البدو عرفوا كيف يكتبون ، ومع ذلك فإن البداوة الخالصة التي تعتمد على الابل كانت شائعة . ويقول أكاثرخيدس وأرتيميدورس ، في أخبارهما عن قبيلة دبي في سهـل (تهامة) عَسِير : « إنهم يعتمدون في معيشتهم على جمالهم فحسب ، وهم يقاتلون علـى متون هذه الجمال ، وعليها يسافرون ، وطعامهم من لبن النوق ولحم الجمال » .

والحق إن الخطـوط في النقـوش الصخـرية التـي تركها بدو صحراء العرب والمنتشرة من قرب منطقـة الصفا جنوبي دمشق ومن شبه جزيرة سيناء إلى حدود نَجْران في جنوبي الجزيرة العربية تكوّن وحـدة وإن كانـــت تشوبهــا تغيرات إقليمية شديدة (وربمــا

مؤقتة) . وقد صنّفت على اعتبار آنها خطوط ثمودية بالرغم من أن بني ثمود في منطقتهم حول ديدان لم يكتبوا إلا جانباً من هذه النقوش الصخرية . وهذه الخطوط من عدة وجوه أقدم بكثير (وظلت كذلك ؟) من خطوط أهل البلاد المقيمين التي تعرضت للتغيير حين إعدادها لتكون من النقوش الأثرية . بل إن نقوشاً صخرية لها صلة بهذه النقوش توجد في جنوبي الجزيرة العربية وبخاصة على طول أطراف الصحراء . والقول بأن كل النقوش « الثمودية » قد دونها فيما يظهر بدو يدل على أن القبائل البدوية كانت ولا شك على شيء من الدراية بضرورة اعتماد كل منها على الأخرى كما ينبىء بروح معينة من التضامن كانت تخالجها وبأن الحياة فيها كانت منفصلة بل مستقلة عن دول المدن في الواحات .

ومن الواضح أن هذا المركز الذي كانت تتمتع به البداوة القائمة على الابل في الجزيرة العربية يختلف تماماً عما نعرفه عن البداوة القائمة على ركوب الخيل في السهوب الشمالية لأوراسيا . وليس من شك في

أن الاختلاف الشديد بين البـداوتين إنمـا يرجـع في المقام الأول إلى أن فصول الشتاء الطويلة والقارسـة البرد في الشمال لا تسمح بأن تغل الأرض أكثـر من محصول وفير واحد وتعوق وجود واحات على الرغم من أن نسبة الرطوبة فيها أعلى . ويمكن القول إنـه حيث تتناثر في الصحراء الواقعـة دون خط الاستـواء واحات محدودة المساحة ، كما هي الحال في أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية شمالـي الخـط الممتـد من وادي بيش إلى نَجْران وإلى الربع الخالي ، بدا أنه في الإمكان تحقيق توازن في القوى إلى حد ما بين القبائل البدوية من جهة ، ودول المـدن التجـارية من جهـة أخـرى ، علـى حين أن من المرجـح أن يكون الفلاحون في الواحات قد اضطروا في الغالب إلى أن يعيشوا أرقّاء لأهالي المدن أو للبدو .

ويرتبط تاريخ البداوة في الجزيرة العـربية ارتباطـاً وثيقاً بكلمة أعراب . وكانت هذه الكلمة لا تطلق في اللغات السامية والعصـور الجـاهلية إلا علـى سكان المناطق البدوية والواحات شمالي الربـع الخالـي .

وكانت تدل بصفة خاصة على البدو الذين يستخدمون الابل وإن كان معناها ينسحب أيضاً إلى سكان الواحات . بل إن محمداً صلّى اللّه عليه وسلم لم يطلق كلمة أعراب إلا على البدو . وانفرد الإغريق بنقل هذا اللقب إلى شبه الجزيرة العربية بأسرها ، والراجح أن ذلك حدث بعد الحملات التي شنها دارا (*Scylax*) . ويطلق ثيوفراستوس (٣٧٢ ـ ٢٨٧) على الجزيرة العربيةالاسم اليوناني تُوْن أرَأبُون (خِرُونْيثوس *Plant .Hist.* جـ ٩ ، الفصل الثاني ، فقرة رقم ٢) . ويقسمها إرَاْتُوسْثِنِيس (أواخر القرن الثالث ق . م .) إلى *Arabia* و *Arabia Eremos* *Eudaimon*(اليمن السعيدة والربع الخالي في العهد الروماني) . بيد أن يوربيديس يتحدث قبل ذلك عن *Arabia Eudaimon* في مسرحية « عابدات باخوس ويتكلم أرستوفانيس (الطيور *Aves* ١٤٤ وما بعدها) عن « *Poliseudaemon* على البحر الأريتري » وذلك في أواخر القرن الخامس ق . م . وعرب الجنوب لم يطلقوا على أنفسهم أبدا لقب أعراب .

ولا ندري شيئاً عن تاريخ القبائل البدوية في الربع الخالي شمال حضر موت وشرقها وغرب عمان إبان العصر الجاهلي . وأفراد هذه القبائل اليوم من البدو الأقحاح الذين يستخدمون الابل ويقتنون بعض الغنم كأقرانهم في الشمال سواء بسواء ، وهم لا يزالون يحتفظون بصخور مقدسة وأماكن مقدسة قرب الابار يدفنون فيها موتاهم . ولكنهم لا يعيشون في خيام ، ويرتدون ثياباً تناسب المناطق الحارة ويتحدثون بلغات الساميين من أهل الجنوب . وفي المناطق الجبلية يتخذون من الكهوف مأوىً لهم ، وهم لا يقتنون خيولاً ويختلفون عن بدو الشمال في أنهم ظلوا خارج الأحلاف المعروفة .

وارتبط مصير البداوة القائمة على الإبل في الجزيرة العربية ارتباطاً وثيقاً بمصير تجارة القوافل . ومن ثم فإن تدهور هذه التجارة كان له شأن كبير ولا شك في حياة البدوي . وبدأ هذا التدهور تدريجاً في القرن الرابع أو الثالث ق . م . عندما أخذت مكوس الطرق التي كانت تجبى على المرور في الطريق تزداد بسبب

انقسام جنوب الجزيرة العربية سياسيا إلى دول مختلفة . واشتد هذا التدهور عندما فتحت مضايق باب المندب ابتداء من عام ١١٥ ق . م . تقريباً لمرور السفن مباشرة من مصر إلى الهند . وتوقفت تقريباً حركة مرور قوافل المواد العطرية بطريق البر عندما أصبح لحركة مرور السلع فيما وراء البحار شأن ابتداء من عام ٤٨ ق . م . تقريباً . وليس من شك في أن ذلك كان ضربة شديدة أصابت الممالك الواقعة في جنوبي الجزيرة العربية ، وكان كارثة على البدو الذين كان لهم حظ مقسوم في حركة المرور بطريق البر ، وكانوا يبيعون الجمال التي لا غنى عنها لهذه الحركة .

ويقال إن لقب أرّهابتاي *Arrnabitai* (أعراب) استخدمه (أكسوم) ملك الحبشة العظيم الذي شيد النصَب التذكار الأدوليتي(انظر ما يلي ، قسم د) ونحن نعرف منه النسخة الاغريقية ، والراجح أن ذلك حدث قبل منتصف القرن الثاني الميلادي ، وقد ذكر هذا اللقب في روايته عن إخضاع الحجاز وعسير

شمالي حدود سبأ وجنوبي الحدود الرومانية . ويبدو أن لقب أرهابتاي *Arriabitai* يعني هنا سكان المنطقة المناوحة للساحل : « كنايدوكولبتاي » *Kinaidokolpitai*. وهم الذين كانوا يعيشون على ساحل الحجاز وعسير كما يقول بطليموس *CL.Ptolemy* .

وقد شرع الأعراب من البدو في التدخل في المنازعات بين سكان جنوبي الجزيرة العربية حوالي القرن الثاني الميلادي وتُذكر كلمتا أعراب وخميس مقترنتَين عدة مرات في نقش نامي من ٧١ إلى ٧٣ . وربما كانت كلمة خُميس (خُمَيْس ؟ ومن الراجح أن تكون مشتقة من خُمْس) تعني الجيش النظامي بينما تعني كلمة أعراب المجندين من بدو الشمال الذين يركبون الإبل أو يمتطون صهوات الخيل . ويرجع تاريخ نقش نامي من ٧١ إلى ٧٣ إلى القرن الثالث الميلادي (الملك ألْهَان نَهْفَان ؛ ويدل نقش « ريكمانز ٥٣٥ » ، الذي يرجع إلى نفس هذا العهد ، على أن الابل والخيول كانت تستخدم في جيوش عرب الجنوب . ولا بد من البحث : هل ثمة

أدلة مقنعة أقدم من ذلك على وجود جنود من راكبي الإبل في جنوب الجزيرة العربية ؟

ونحن نعلم أن نقش النمارة شرقي جبل حَوْران في الصحراء السورية يقول سنة ٣٢٨ م : « هذا قبر امرؤ القيس بن عمرو ، ملك الأعراب جميعاً ، وهو الذي . . . وزحف مظفراً لمحاصرة نجران ، قصبة شمّر » . ومن هذا نرى أن امرأ القيس لقّب نفسه بملك الأعراب جميعاً على الرغم من أنه لم يكن يملك نجران التي تقع في الطرف الشمالي الشرقي لجنوبي الجزيرة العربية الزراعي ، ولكنه ربما كان ملكاً على معظم تلك القبائل البدوية التي كانت تعيش في خيام ، أي الأعراب . وكانت نجران في ذلك العهد بلدة في مملكة « شَمّر » ، وشَمَّر يحَرْعِشْ فيما يرجح ، هو الذي اتخذ لقب « ملك سبأ وذو رَيْدان وحَضْرَمَوْت ويَمْنات » (ذو رَيْدان تمثل حِمْيَر . وربما تكون يَمْنات اسم المنطقة الساحلية الواقعة جنوبي حضرموت ، وهذا اللقب يعني أن شَمَّر كان

ملكاً على الإقليم الزراعي بأسره في جنوبي الجزيرة العربية أو كان يدّعي هذا .

وفي مطلع القرن الخامس ، حين كانت أجزاء كبيــرة من شمالي الجزيــرة العربيــة تقع في أملاك أبيكــرب أسعد ملك جنوبي الجزيـرة العربيـة ، هو الذي تذهب الروايــة إلى أنه قام بحملة على بلاد الفرس ـ توسع في اللقب وأصبح وقتذاك يعبر عنه بما يأتي : « ملك سبأ وذي ريـدان وحضرموت ويمنات وما منهم من لأاعراب في النجاد (وسط الجزيــرة العربية) وفي تهامة (سهول الحجاز وعَسِير) » . ويفهم من هذه العبارة مرة أخرى أنه لا يقصد بكلمة أعراب إلا سكان البادية .

وقد نشأ اضطراب شديد للأمن في الجزيرة العربية نتيجة الحروب المتصلة بين رومة وبلاد فارس وبين الحبشة وسبأ ، والتدهور الاقتصـادي لأقـاليم البحـر المتوسط ، واشتداد المنافسة بين نقل السلع بطـريق البحر (وقد أصبح جنوبي الجزيرة العربية مستبعـداً من ذلك) وبين نقلها بطريق البر ، والتنـافس علـى

التجارة ، وضعف سلطان جنوبي الجزيرة العربية الاقطاعي ، والحروب الاقطاعية والدينية المهلكة وذلك في الفترة الواقعة بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين . واقتحمت القبائل منطقة تتوقف فيها الزراعةعلى المطر بأقاليم في الهلال الخصيب مناخها كمناخ السهوب ، بل إن مناطق الواحات قد تدهورت حالها أو تخلى عنها الناس تماماً وبخاصة في جنوبي الجزيرة العربية على طول حدود الصحراء وفي حضرموت حيث نفذت البداوة القائمة على استخدام الابل من الشمال عن طريق الغزوات أو بالتسلل التدريجي . ويمكننا أن ندلل على ذلك بمثال مشهور هو ما تعرض له سد مأرب ، القصبة القديمة لسبأ ، من إهمال وتصدع ثم انهيار هذه المدينة وواحتها انهياراً تاماً ، ثم إن النزعة الاقطاعية الشديدة للفلاحين في نجاد اليمن وعمان (القبائل) في مساكنهم الحصينة التي تشبه القلاع قد أدت إلى تشتيت القوة إلى أقصى حد بل وانتهت إلى الفوضى ، كما أدت إلى تنظيم قَبَلي وثارات تشبه ما هو معروف عند البدو المتبربرين أهل الجمال . وأصبح الأهالي

من البدو بالتدريج أكثر ميلاً للترحال والانتقال إلى مسافات بعيدة في الجزيرة العربية .

وكانت هذه الهجرات الجماعية لقبائل بأسرها تتجه في الغالب من الجنوب إلى الشمال . وفي الجنوب تحول جانب من السكان المشتغلين بالفلاحة إلى حياة البداوة ، أما في الشمال فالراجح أن الحروب بين رومة وبلاد فارس قد أغرت أمثال هؤلاء البدو على الالتحاق بفرق الجند الراكبين للجمال منضمين إلى جانب خصم من الخصمين ، وذلك لعجزهم عن بيع إبلهم لاضمحلال تجارة القوافل .

ويصدق على هذا العهد بالفعل المثل العربي الذي يقول إن اليمن مهدُ العرب والعراق لحدُهم . ومع ذلك كانت هناك هجرات أيضاً في الاتجاه المعاكس لذلك مثل هجرة بني كندة إلى حضر موت في القرن السادس الميلادي ، وقد بلغ فيها عدد من هاجروا ، في رواية الهمداني ، أكثر من ٣٠,٠٠٠ رجل (Forrer ، ص ١٣٤ وما بعدها) . وبتدهور سلطان الدول في البلاد المجاورة التي تعتمد على الزراعة

وتتميز بكثافة في السكان أكبر أخذ نفوذ البدو يشتد .
ويدلل كاسكل*Caskel* (١٩٥٣) على أن سبيل الحياة
الاجتماعية والاقتصادية التي نصفها بأنها بدوية ، قبل
هذا العهد من التبربر ، لم تتسم بالطابع الذي عرفناه
من الأوصاف التي ساقها داوتي*Doughty* وأوبنهايم
Oppenheim. ، ولورنس *Lawrence*. وقد اختفت الكتابة
بين البدو وازدهرت الرواية الشفوية .

ولعل من الطريف أن نعرف متى كان الجمع في
غزوة من الغزوات لأول مرة بين الافادة من الجمل في
الركوب وقطع المسافات الطويلة ، وبين الافادة من
الجواد عند القيام بالهجوم الأخير وهو عمل بارع كان
عبد العزيز آل سعود لا يزال يباشره . ومما يذكر أن
ملخوس (ملك) الثاني ملك الأنباط أنفذ ١٠٠٠
فارس و ٥٠٠٠ راجل لمساعدة تيتوس عندما هاجم
القدس حوالي عام ٦٧ م . (*Hitti* ، ص ٦٨) .
وتظهر الرسوم الصخرية المصاحبة للنقوش الصفوية
في الحرّة جنوبي شرق دمشق (من القرن الثاني إلى
القرن الرابع أو أطول من ذلك ؛ أن هؤلاء البدو

الأقحاح قاموا بغاراتهم مستعينين بالحصان والجمل . ونعرف أيضاً من أميانوس ماركلّينوس Ammianus Marcellinus (القرن الرابع الميلادي) أن البلميس Blemmyes قاموا بغاراتهم على هذا النحو .

ويبدو أن الجواد في جنوبي الجزيرة العربية كان دائماً أقل شأناً منه في الشمال . ومع ذلك فإننا نسمع أنه كانت هناك خيول بين الهدايا التي بعث بها يِثْعَامَر ملك سبأ إلى سرغون عام ٧١٥ ق . م . وجاء في الرحلة الموسومة باسم Periplus Maris Erythraei (حتى عام ٨٠ م .) أن التجار كانوا يشحنون الخيول من مصر إلى موزه (مَوْشِج) . ويقول استرابون في خبر موجز وافٍ ساقه عن الزراعة في جنوبي الجزيرة العربية أن الخيول كانت شحيحة وأن الجمال كانت تقوم بتأدية مهامها . وليس لدينا إلا عروض قليلة عن خيول من جنوبي الجزيرة العربية يبدو أنها من واردات الشمال أو نماذج منها أو أنها ترجع إلى عهود متأخرة . ومن الراجح أن الحصان لم يرتفع شأنه في جنوبي الجزيرة العربية إلا منذ الاستعانة بجنود البدو أي منذ

القرن الثالث الميلادي على الأقل . والواقع أننا نعلم من النقش الذي عثر عليه ريكمانز ويرجع إلى اواخر القرن الثالث الميلادي ، أن الخيول والجمال كانت تستخدم في الجيوش بجنوبي الجـزيرة العـربية وأنـه كان هناك فرسان علاوة على الجنود النظاميين .

د ـ ظهور بداوة الجمل في شمال أفريقية .

مما يثير الدهشة أن حالة واحة النهر العظيم بمصر وحضارتها قد عاقتا انتشار تربية الجمل والبداوة التي تعتمد عليه فترة طويلة ، فقد فرضت رقابة شديدة على الحدود وأبدت نفوراً شديداً من البدو الأسيويين . وليس ثمة لفظ خاص في اللغة المصرية القديمة لكلمة « جمل » .

وقد افترض أن أهل سبأ هم الذين أدخلوا الجمل إلى السهول الواقعة في شمالي الحبشة عندما استعمروا هذا القطر في بداية الألف الأخيرة ق . م فيما يحتمل ، وأتوا معهم بالمحراث وعلموا الناس كيف يسوون الأرض ويروونها صناعيّاً . وقد ذكرنا فيما سبق أن هذه المستعمرة كانت قد أصبحت

وطيدة الأركان ، والراجح أنه كان قد مضى على إنشائها زمن طويل في القرن الخامس ق . م . بل إن كونتي روسيني *Conti Rossini* قد افترض إدخال الجمل في مثل هذا التاريخ المتقدم ومع ذلك فإنه لم يجد دليلاً واحداً يؤيد ما ذهب إليه . ولم يرد ذكر للجمل في أي من النقوش السبئية بالحبشة ، بيد أن هذا لا يهم كثيراً ، كما قلنا ، لأن هذه النقوش لا تزال قليلة . ويجدر بنا على أية حال ألا ننسى أن الجمل لم يجلَب إلى هضاب الحبشة حتى في يومنا هذا ، ولم تنتشر تربيته إلا في السهول وعلى المنحدرات السفلى . وهذه المنطقة ، الواقعة قرب الموانىء في شمالي الحبشة ، شريط ضيق من الأرض كما هي الحال في غربي اليمن .

ولعلنا نتوصل إلى أن أهل سبأ لم يُدخلوا الجمل إلى الجانب الافريقي من البحر الأحمر من خبر معيّن وحقيقة لغوية : فنحن نعرف أن أكاثرخيدس (حوالي ١٣٠ ق . م فيما يحتمل) يسوق وصفاً تفصيلياً جيداً عن سكان الكهوف من البدو الذين يعيشون وراء

الساحل الافريقي للبحر الأحمر شمالي الحبشة (البلميس المتأخرون أو قبائل البجا) ولكنه لا يقول شيئاً عن تربية الجمال ولا يتحدث إلا عن تربية الماشية والماعز . ولعل أكاثرخيدس قد استقى قصته من وصف أقدم من ذلك بكثير .

وأما الحقيقة اللغوية فهي أن كلمة « جمل » تطلق على هذا الحيوان في لغة كَعَزعز وفي جميع اللغات السامية بالحبشة على السواء كما تطلق أيضاً في مصر ، بينما نجد أن الناس في شمالي الجزيرة العربية لم يستخدموا إلا كلمة « إبل » . ولم يعثر على كلمة « جمل » في نقوش جنوبي الجزيرة العربية إلا في نقش واحد يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الميلادي ثم في القرن السادس الميلادي (يوسف ذو نُواس) ، وأول ذكر فيما نعرف للجمل في اللغة الحبشية يرجع إلى القرن الرابع الميلادي في ليتمان .

ولا نعرف شيئاً عن وجود الجمل من الكتابة

الهيروغليفية أو من المؤلفين الاغريق أو الرومان أو من أي حفر أو رسم على الصخر سواء في مصر أو في أي جزء من شمالي إفريقية في العصر اليوناني المتأخر (الهيلنستي) . ومهما يكن من أمر فإن هناك استثناءً واحداً : ذلك أن بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٦) أصلح الطرق القديمة الموصلة من قَفْط *Koptos* على النيل إلى البحر الأحمر (١٧٣ كم) وفتح طريقاً أطول من نفس المكان إلى برنيقي طروغلوديتكي (٣٨٠ كم) الميناء الجديدة التي أنشأها ، بإقامة إحدى عشرة محطة ، لم يفعل ذلك من أجل المسافرين مشياً على الأقدام فحسب بل فعله من أجل التجار المسافرين على ظهور الجمال أيضاً . ويقول إسترابون إن قَفْط أصبحت بلدة تنسب للعرب وللمصريين على السواء ، وأن العرب اشتغلوا في المناجم الواقعة بين قفط وميوس هورموس . ويتحدث بليناس أيضاً عن قبائل عربية كانت تعيش في منطقة برنيقي . وأعاد فيلادلفوس شق القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر ، وأنشأ قواعد

بحرية على طول الساحل الغربي للبحر الأحمر (انظر ما يلي) . ويرجح أن فيلادلفوس أدخل قوافل الجمال وأصحابها العرب ونقلهم إلى فيلوترا *Philotera* وإلى ميوس هورموس وبرنيقي عبر البحر من الساحل الواقع شمالي الحجاز *Ritter* جـ ٢ ، ص ٧٠٣) .

ويبدو أن بطليموس الثاني كان قد وضع هذا الساحل الواقع شمالي الحجاز تحت سلطانه بتوطيد صلات الصداقة بينه وبين دَيْدان على طريق البخور ،وبهذا استطاع أن يحول حركة تجارة البخور من ديدان إلى ميناء جديد على البحر الأحمر (تشيت ؟) ثم تنقل من هناك بالمراكب إلى مصر. وكانت هذه التجارة حتى ذلك الوقت تسير في الطريق من سبأ ومعين إلى غزة على البحر المتوسط . ولما كانت ديدان مستعمرة تابعة لمملكة معين التي نشأت شمالي سبأ فإن النقش الذي على ناووس تاجر بخور من معين كان يعيش في منْف فيما يرجح يؤيد وجود هذا الارتباط ، وهذا النقش يرجع إلى عام ٢٦٤ ق . م فيما يرجح ، وكان التاجر المذكور يجلب المُر وغيره من السلع إلى مصر

على سفنه الخاصة ويأتي بالأقمشة الكتانية الناعمة إلى الجزيرة العربية . وقد كان في وسع بطليموس الثاني ومن خلفه من الملوك أن ينقلوا الفيلة على مراكب كبيرة تسير في البحر الأحمر ولذلك تيسر لهم نقل الجمال . ولعل العرب الذين جيء بهم مع جمالهم إلى مصر كانوا يعرفون الكتابة بما يسمى بالخط الثمودي المعروف في شمالي الحجاز . وقد عثر على عدة نقوش ثمودية في صحراء مصر الشرقية وبخاصة على طول الطرق .

ويجوز لنا أن نتساءل مرة أخرى : كيف جيء بالجمل إلى الحبشة ؟ هناك احتمالان لذلك : فإما أن يكون بطليموس أو أحد خلفائه هو الذي أدخله ، وإما أن يكون ملوك الحبشة من أكسوم هم الذين أدخلوه في القرن الثاني الميلادي تقريباً .

وشيد بطليموس الثاني مدينة ثيرون البطلميوسية الحصينة على الجزء الشمالي الأقصى من الساحل الحبشي (انظر نصَب بيثوم في مصر) . وقد عثر

كوزمــاس إنديكوبلســتس *Cosmas Indicopleustes*
على نصَب في أدوليس جنوبي مصوع الحديثة (*Winstedt*
يروى أن بطليمــوس الثالــث أيوركيتس (٢٤٦ ـ
٢٢١) وأباه كانــا يقومــان بصيد الفيلــة في هذه
المنطقة . ولا نعرف على وجه التحقيق متـى شيدت
« برنيقي هي كاتا ساباس » قرب عصّاب الحالية كما
لا نعرف متى استبدل بمدينـة برنيقـي الجنـوبية هذه
مستعمـرة تسمـى أرسينـوي ، وكل ما نتبينــه هو أن
البطالمة حرصوا على وضع الساحل الافريقي بأسـره
في دائرة نفوذهم البحري وسلطانهـم شيئـاً فشيئـاً .
وكان النقـل بالسفـن والتجــارة في عهــد البطالمــة
يخضعان لإشراف دقيق من الدولة ، وربما ظل لسبأ
قبل هذا العهد نفوذ في مستعمرتها الحبشية القديمة ،
وبخاصة في المنطقة الواقعة علـى الساحـل ، علـى
الرغم من حرج مركزها في جنوبي الجـزيرة العـربية
بين الدولتين الحديثتين القويتين ، معين في الشمال
وقَتَبَان في الجنوب ، إذ كانت قَتَبان تمتد حتـى عدن
ومضايق باب المنـدب . وكان هنـاك مدخـل سبتـي

Sabaitikon Stoma جنــوب ثيرون البــطلمية (أرتميدوروس في قول إسترابون *Strabo*) ، وفضلاً عن ذلك كان هناك مكان يسمى سَبَـت (شبت ؟) تجاه جزيرة مصوع ولعـل « مدينـة سبـاي العامـرة » كانت في خليج عصاب الحديثة . وليس من شك في أن البطالمـة لم يجـدوا عسـراً في اقتحـام السـاحـل الحبشي بسبب الحروب المهلكة التي كانت دائرة في جنوبي الجزيرة العربية . ولما كانوا قد نقلوا فِيَلة من هذا السـاحـل إلـى مصـر في مراكب كبيرة فليس من المستبعد أن يكونـوا قد جاءوا بجمـال إلـى السـكان المقيمين قرب هذا السـاحـل من شمالـي الحجـاز .

وقبل عام ١١٥ ق . م تقريباً كانت ميناء عدن القَتَبَانية موضعاً هامّاً لنقل السلـع العابـرة بالسفـن . وكانـت الشحنات تأتي من مصر والهند . ولمـا حلـت دولـة حِمْيَر الجديدة محل قَتَبَان في عدن أثناء ذلك العهـد ودمرت ميناء عدن أصبح الطريق ممهداً أكثـر من ذي قبل أمام سفن البطالمة لمخر عبـاب البحـر مبـاشرة إلى الهند .

ويبدو أن مملكة أكسوم (الحبشة) التي تذكر لأول مرة في خبر رحلة بحرية في البحر الأريتري (حوالي عام ٨٢ ـ ٩٦ م) كانت دولة قوية بالفعل في ذلك العهد ، وأنها تعلمت الكثير من الملاحة الإغريقية الرومانية في البحر الأحمر . ثم أقام أحد ملوك أكسوم ، ولعله عاش في منتصف القرن الثاني الميلادي إمبراطورية عظيمة تمتد من حدود مصر إلى الصومال ، وذلك طبقاً لما ورد في النصب التذكاري الأدوليتي . وقد غزا ساحل الجزيرة العربية وما وراءه من ليوكي كومي في شمالي الحجاز حتى أقصى الجنوب عند حدود مملكة سبأ (وادي بيش في جنوبي عسير) . وهو يقول إنه استخدم أسطولاً في هذه الغزوة ، واسمه غير معروف . ويدل النصب التذكاري على أن مملكة أكسوم أصبحت في ذلك العهد قوة بحرية ربما كانت تؤيدها رومة . وقد نقشت على النصب التذكاري عبارات باللغة اليونانية كتبت بالحروف اليونانية . وكانت أكسوم في القرن الأول الميلادي (الرحلة المذكورة آنفاً : *periplus*)

قد أَلِفت الحديث باللغة اليونانية . ومن ثم قد يكون هذا الملك الذي ورد ذكره في النصب التذكاري الأدوليتي هو الذي أدخل الجمل إلى الحبشة من مستعمرته الواقعة في شمالي الحجاز . ولا بد أن هذا العهد قد تميز باطراد نمو الوعي القومي في الحبشة ، ومن المرجح أن تكون قد نشأت فيها طريقة رسمية للكتابة تقوم على أساس حروف الكتابة السبئية النسخ التي تستخدم في النقش على النصُب التذكارية التي تأثرت الكتابة اليونانية (من اليسار إلى اليمين وأرقام) وحروف الكتابة الثمودية . ويبدو أن جنوب البحر الأحمر كان يخضع للسيادة الحبشية في القرن الثالث على حين انكمشت حركة التجارة المباشرة بين الإمبراطورية الرومانية والهند .

ويبدو أن البلميس أو البجا كانوا أول شعب إفريقي قام بتربية الجمال بعد تلك القبائل العربية التي أدخلها على الأرجح بطليموس الثاني إلى برنيقي طروغلوديتكي وميوس هورموس . ويمكن القول استناداً إلى ما جاء بكتاب إسترابون والنقوش الحبشية

أنهم عاشوا جنوب شرقي سين *Syene* بين النيل والبحر الأحمر . ولم يكونوا في عهد إسترابون « كثيري العدد أو محبين للقتال » وكانوا يربون الأغنام والماعز والماشية . ولم يكونوا وقتذاك خطراً على الإمبراطورية . ومهما يكن من أمر فإنهم تعلموا ولا شك تربية الجمال من جيرانهم العرب في القرون التالية حتى أصبحوا في هذا بالفعل من « أبرع » البدو الذين يغيرون وهم على ظهور الجمال . وأصبحت غاراتهم في عهد دقيوس *Decius* (٢٤٩ ـ ٢٥١ م) على ظهور الجمال محرجة للإمبراطورية الرومانية ، وبعد مرور عشرين عاماً كانوا يسيطرون بالفعل سيطرة تامة على الطرق بين النيل والبحر الأحمر .

وأصبحت حركة التجارة بين مصر والهند في ذلك الطريق تتوقف كل التوقف على حسن نية البلميس ، وفي عهد بروبوس *probus* (٢٧٦ ـ ٢٨٤) احتل البلميس قفط وبطلمايس الى حين . واضطر دقلديانوس إلى أن يؤدي لهم الجزية عام ٢٩٦ على الحدود قرب سين *Syene* . وقد طلب هذا الامبراطور

من « النوباتاي » *Nobades . Nobatae* أي النـوبيين ؟) مساعدته في قتال البلميس ومنحهم دوديكاشوينـوس *Dodekascioonos* قاعدة ينزلون فيها .

وفـي القـرن الرابـع الميلادي أصبـح البلميس والقبائل العربية في مصر ـ بما لديهم من جمال ومـا توفـر لهـم أيضـاً في ذلك الوقـت من خيول ـ يزداد خطرهم باستمـرار علـى الامبراطـورية . واضطـرت الإمبراطـورية إلـى تجـريد فرق من راكبـي الجمـال لمحاربتهـم . وهاجـرت قبائـل عربية جديدة عابـرة خليج السـويس في عهـد الإمبراطـور فالنس *Valens* (حوالي ٣٧٠ م) ، واحتلـت الجـزء الشمالـي من الصحراء « العربية » شرقي النيل ، والراجـح أنهـم بلغوا خط العرض الذي تقع عليه مدينـة طيبـة . ولا شك أنهم دعموا قوة البداوة التي تعتمد على الجمل والقتال على ظهور الجمال في الأقاليم التي تقع حول مصر .

واكتشف هـ . أ . وينكلر *H.A. Winkler* في الرسوم الصخرية التي عثر عليها بالصحراء « العربية » صورة

لجماعة من « البلميس » في عصر يقع بين عهد مربي الماشية والعصر الاسلامي . ويبدو من المحقق أن هذه الجماعة تنتسب إلى هذا العصر (حروف يونانية وقبطية وتأثير يوناني متأخر وآثار وسمات نموذجية) . وهي تدل في الغالب على أناس مسلحين (بقوس ورمح وسيف ودرع مستطيلة الشكل) يركبون الجمال أو يمتطون صهوات الخيل . وهنا نجد أن الجمل هو الدابة التي تتبوأ مكان الصدارة ، وتظهر هذه الدابة إلى جانب الحصان والحمار والماشية . ويقول وينكلر *Winkler* (سنة ١٩٣٨ ، ص ٤١) : « وفي كل الرسوم الصخرية السابقة يسود السلام ، أما في صور من يقتنون الجمال فكل ما فيها يدل على الحرب ، فقد كانوا يجلبون الحرب أينما حلوا » .

ويعترف كاتب هذه المادة بأنه ليس في موقف يسمح له بالحديث عن تطور البداوة في المناطق الجافة بإفريقية . وإذا اتخذنا الرسوم الصخرية أساساً لحكمنا بدا الأمر كأنما يدل على وجود فترة سابقة ظهر

فيها مربّو الماشية لا في سهوب السودان وشرقي إفريقية فحسب بل في أقاليم الصحراء أيضاً . وحتى لو سلمنا بأن المناخ كان في بعض المواسم أكثر رطوبة مما هو عليه الآن ، فقد يراودنا الشك فيما إذا كانت الماشية ذات القرون هي الدواب التي تتبوأ مكان الصدارة في تلك الأقاليم الصحراوية التي لا تلائمها تماماً على الرغم من أن الماشية قد تكون أدخلت هناك قبل الأغنام والماعز . ويخيل إليّ أن من المرجح أن تكون الماشية ، باعتبارها من الأنعام المقدسة ، قد صورت على الصخور عندما توطدت حياة البداوة ، على الرغم من أهميتها الثانوية بالنسبة للاقتصاد البدوي بالقياس إلى الماعز والأغنام . ولعلنا نذكر أن الرسوم الصخرية « الثمودية » في غربي الجزيرة العربية تثبت وجود حيوانات الطراد والجمل ولكنها لا تكاد تدل على وجود الماعز والأغنام على الرغم من أننا نستطيع أن نجزم بأن البدو في تلك الأقاليم كانوا وقتذاك يقتنون قطعاناً من هذه الحيوانات .

وتدل الرسوم الصخرية ، في قول لوته *Lhote* سنة ١٩٥٣ ، على أن الحصان ونوعاً من العجلة الحربية قد أدخلا في فترة سابقة يذهب لوتـه *Lhote* إلـى أنهـا كانت حوالي عام ١٢٠٠ ق . م ، على يد « شعوب بحرية » من إقليم بحر إيجه في منطقة غدامس وفزّان وتَسِيلي والهجار . وتطور ركوب الحصان في وقـت متأخر بعض الشيء عن هذا بين هؤلاء القـوم الـذين يستخدمون العجلة الحربية ، ركبوه من غير استعانة بالزمام والقرطمة على النحو الذي وصف به المؤلفون القدماء طريقة امتطاء بدو شمالي إفريقية لخيولهم في زمانهـم (*Silius Italicus* و *Strabo* و *Polybius*) . وفـي منتصف القرن الثالث ق . م حل الركوب تماماً محل استخـدام العجلـة الحـربية في حروب شمالـي إفـريقية ، وشنـت الغـارات البـدوية علـى ظهـور الخيل .

ومن الغريب أننا لا نعرف شيئاً عن الطـرق التـي أدخـل بهـا الجمـل في شمالـي غرب إفـريقية والصحراء . ويظهر الجمل في المؤلفات لأول مرة في

كتاب « الافريقي الجميل *De bello Africano* » لقيصر عام ٤٦ ق . م . إذ قيل إن ٢٢ جملاً كانت ضمن الغنيمة التي غُنمت من الملك جوبا . بيد أن جوبا كان رجلاً واسع المعرفة في علوم جمة ، وخاصة الجغرافيا ، وكان يعد جامعاً للمعلومات من الطراز الذي نشأ في العصر اليوناني المتأخر (الهيلنستي) ، ويبدو من المرجح أنه استورد هذا الأنعام ليختبر مدى الانتفاع بها في شمالي إفريقية . ولعل برقة هي الإقليم الوحيد الذي رَبِيَ فيه الجمل بأعداد كبيرة في ذلك العهد ، فهو يظهر على عملات سكّها ل لولّيوس *L .Lollius* ، وهو قائد من قواد برقة في عهد بومبي . ونجد بعد ذلك ثغرة ، ففي جبانة هدرومتوم *Hadrumetum* (سوسة ، بلاد تونس) ، عثر على تمثال صغير لراكب جمل ونقش بارز يصور ميدان سباقَ بين عجلات حربية تجرها جمال . وهذا التمثال وذلك النقش من القرن الثاني أو ربما من القرن الثالث . ومهما يكن من أمر فإن الاشارة الثانية للجمل في الكتب ترجع إلى عام ٣٦٣ م . وهي تقول

إن الحاكم الروماني لولاية إفريقية يطلب أربعة آلاف جمل من الجمال التي تستخدم في النقـل من سكان لبتيس ماجنا *Leptis Magna* علـى خليج سِرْت *Syrte* .

وهناك خبر من لسينيسيوس *Synesius* يرجع تاريخه إلى عام ٤٠٠ م تقريباً يقول إن قطعاناً من الجمال والخيول كانت وقتذاك عماد ثروة أهالي برقة . وأخذت تتواتر في القرن الخامس أخبار عن تربية الجمال في شمالي إفـريقية وبخاصـة في المناطـق الواقعـة حول خليج سرت *Syrtes* .

وقد استخلص معظـم الكتّاب وبخاصـة كوتييه *Gautier* (ص ١٩٠ وما بعدها) وكسل *Gsell* وغيرهما من هذه المصادر الشحيحة نوعاً ما أن الجمل أدخل أخيراً في شمالي إفريقية عبر البحر المتوسط . علـى أننا إذا تأملنا وضع البلميس *Bemmyes* في صعيد مصر في القرن الثالث الميلادي نجد أن سلسلة الواحـات غربي مصر كانـت أيضـاً فيمـا يبـدو طريقـاً محتمـلاً لدخول الجمل . وفضلاً عن هذا فإننا يجب ألا ننسى أن أي طريق جنوبـي الصحـراء الليبية ظل خارج المنطقة التي وصلتنا عنها أخبار تاريخية .

وربما يسّر لنا البحث اللغوي وأعمال التنقيب في المستقبل ما يعيننا على حل هذه المسائل . وفي لغة البجا (البلميس) نجد أن الاسم الغالب للجمل هو قام (كام) ، وفي شمالـي النوبـة كم (كمْتـى) . وتطلق قبيلة التِّبُّو على الجمل اسم « كونى » ، ويبدو أن هذا الاسـم قد انتشر على أيديهـم بعيداً في أرجـاء الجزء الشرقي من السودان حيث يقال إن قبيلة التُّبو قد أدخلت الجمل . كما أن الجمل يسمـى « كومـه » في جبال مندارا (شمالي الكاميرون) ويطلق على الجمل اسم إلْدى كومه . بل إن الماساي يطلقون على الجمل اسم إنْ ـ تُومَس (عند النالدي : تومبس . وهناك تسـمية شائعـة للجمـل في لغـة البربـر وتشمـل لغـة الطوارق ، وهي ألْغَم أو ألَمْ . وليس من شك في أن الاسم رقومي بلغة الهوسا والاسـم ركوم بلغـة النوبـة مشتقـان من ألْغَـم . وليسـت كل هذه الأسماء ، فيما يبدو ، مشتقـة من أسماء عربية ، وإن كانـت هنـاك أسماء أخرى تدل على وجود مثل هذا الاشتقاق .

٢٠ - الجزيرة العربية قبل الاسلام :

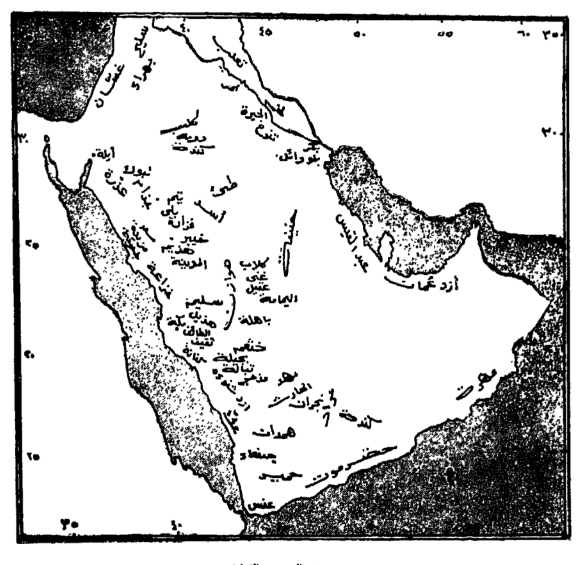
(ا) المصادر

(ب) التاريخ

(جـ) الروابط السياسية

(د) النظرة الأخلاقية

(هـ) الدين



جزيرة العرب القبلية

أ - المصادر .

(ا) المصادر : إن معلوماتنا عن البدو في لجزيرة العربية قبل الإسلام مستقاة في جوهرها من مصدرين ، أولهما قدر معين من الشعر الجاهلي ، وثانيهما شروح لهذا الشعر وشروح أمثال عربية قديمة كتبها دارسون مسلمون عاشوا في القرن الثاني الهجري وبعده ، وتضم هذه الشروح كثيراً من الروايات المأثورة عن حوادث وقعت في الأزمنة السابقة للاسلام . وقام أيضاً دارسون آخرون بجمع هذه المادة في مصنفات خاصة . وقد أنكر صحة الشعر الجاهلي علماء محدثون وبخاصة د . س . مركوليوث *D .M .Margoliouth* وطه حسين ، بيد أن نظرياتهم لم تحظ بالقبول لدى معظم الدارسين إذ يرى هؤلاء أن الشعر الجاهلي برمته قد نقل بأمانة ،

وإن كانـوا يسلّمـون في الوقـت نفسـه بوجـود بعض القصائد المنحولة . كذلك فإن الـروايات التـاريخية التي كان بعض الدارسين الغربيين يعدونهـا تافهـة لا وزن لها ، قد أصبح لها الآن في رأي معظم الدارسين أسـاس من الواقـع وأنهـا مرآة لظـروف الحياة في الجاهلية وإن كانت لا تكفي لكتابة تاريخ صحيح . وهذه المادة المأثورة يؤكدها من بعض الوجوه بعض ما جاء به القرآن الكريم أو استدلالات من آياته ، كمـا تؤكدها وتكملها النقوش العديدة التي عثر عليها علماء الآثار المحدثون في الجزيرة العربية .

ب ـ التاريخ .

(ب) التاريخ : منذ فجر التاريخ والبدو من السهوب العربية يضغطون على أراضي الحضارة المستتبة المحيطة بهم . وكان هذا الضغط في بعض الفترات أكبر والنفوذ إلى الأراضي المستقرة أعمق ، ويقال إن البدو أقبلوا في « موجات » . وقد دخل العبرانيون والآراميون والعرب والأنباط سورية والعراق في الأزمنة السابقة للمسيحية ، بينما كان هناك ضغط أكبر من العرب وأهل تدمر في القرون الستة الأولى السابقة للهجرة . وكان البدو يقبلون مغيرين في مبدأ الأمر ولكنهم كثيراً ما كانت تطيب لهم الإقامة (مثل قبيلة تنوخ في العراق حوالي عام ٢٢٥ م) . وتوثقت الصلات بين البدو المستقرين وبين أقرانهم ممن يعيشون في الصحراء مما يسّر

التجارة . ولـم يكن في وسع أحـد أن يقـود قوافـل التجارة عبر الصحارى غير البـدو يقومـون في تاريخ الإمبراطوريتين البيزنطية والساسـانية بدوري المغير والتاجر .

وحاولت الإمبراطوريتان بطرق شتـى الدفـاع عن نفسيهما من الغارات المعادية التي يشنها البدو للسلب والنهب . ووجد أن الطريقة التي تؤدي إلـى أحسـن النتائج في هذا الصدد هي استخدام ولاة من أنصاف البـدو علـى حدود الامبراطـورية كي يدفعـوا عن الأراضي المستقرة شر الفرَق المغيرة عليها من قلـب السهوب . وقام ملوك الحيرة اللخميون بهـذا الـدور في العراق منذ عام ٣٠٠ م تقريباً حتى نهاية حكم هذه الأسـرة عام ٦٠٢ . أمـا علـى حدود الامبراطـورية البيزنطية (الروم) فقد قام الملوك الغسانيـون بهذا الدور ، بيـد أنه لم يكـن لهم شأن إلا مؤخراً (منح يوستيانيـوس بعض الألقاب للملك الغساني عام ٥٢٩) ولم يكن لهم فيما يبدو إلا مخيّم اتخذوه قصبة لهم ، ولم تكـن في حوزتهم أيـة مدينة تضارع

الحيـــرة . وتغيـــر هذا النظام الدفاعي قبل الفتوح الإسلامية بوقت قصير . وكان في الحيرة مقيم فارسي يهيمن على الزعيم العربي الذي خلف اللخميين في الحكم ، على حيـن أن الاعانات الماليـة البيزنطيـة للغسانييـــن قد توقفت بعد الغزو الفارسي (٦١٣ - ٦٢٩) ولم يستأنف منحها فيما بعد .

وبينما يتضح بجلاء أن بدو الجزيرة العربية كانوا منخرطين في التجارة على نطاق واسع فإن تفصيلات ذلك لم تدرس بعد دراسة وثيقة . ولم يكن البدو على اتصال بالامبراطوريتين البيزنطية والفـارسية فحسـب بل بالمملكة الحِمْيَرية في جنوبـي الجـزيرة العــربية أيضـاً (حتـى تغلـب عليهـا الأحبــاش حوالـــي عام ٥٢٥) . وكان ازدهار الحضارة في جنوبي الجزيرة العربية متوقفاً على التجارة ، فإذا تدهورت التجـارة فيها تدهورت الحضارة (وربما كان هذا يرجع إلـى فقـد السيطـرة علـى البحـر الأحمـر) . وتتحـــدث الروايات العربية عن تصدع سد مأرب واعتبرته إيذاناً بانهيار حضـارة جنوبـي الجـزيرة العـــربية ، بيد أن

الكشوف الأثرية تشير إلى سلسلة من الانهيارات في نظام الري ؛ والمظنون أن هذه أعراض الانحلال الذي أصاب جنوبي الجزيرة العربية وليست السبب الذي أدى إليه . وفضلاً عن هذا فإن الروايات العربية تربط بين تصدع سد مأرب وبين نزوح كثير من قبائل البدو إلى الشمال (مقترناً فيما يبدو بانصرافهم عن حياة الاستقرار) . وفي الوقت نفسه بدأت في الازدهار التجارة البرية التي تنقل بالجمال في قوافل تسير بين اليمن والشام والعراق ، وما إن حل عام ٦٠٠م حتى كان القرشيون في مكةيتحكمون في هذه التجارة إلى حد كبير . وقد اتخذ القرشيون أنفسهم مدينة مكةمركزاً لهم ، وبهذه المثابة لم يعودوا بدواً ، إلا أن تجارتهم اقتضت الارتباط بأحلاف وتوثيق صلات أخرى بكثير من القبائل البدوية . ومن ثم فإن قيادة القوافل وكفالة أمنها قد أسهما إسهاماً له شأنه في معاش البدو ، ثم إن الأسواق التي تجلب إليها القوافل السلع حيث تتبادلها الأيدي قد أتاحت للبدو فرصة الحصول على كثير من السلع التي لا ينتجها الناس في السهوب . ومن هنا نجد أن

الاقتصاد البدوي في جملته بالجزيرة العربية قبل الإسلام كان أبعد ما يكون عن الاقتصاد المنعزل الذي يقوم على سياسة الاكتفاء الذاتي .

جـ - الروابط السياسية .

(جـ) الروابط السياسية : كانت الوحدات الاجتماعية والسياسية بين البدو العرب جماعات تختلف عدداً . ويشير الكتاب الغربيون عادة إلى هذه الجماعات ويصفونها بأنها « قبائل » أو « فروع من قبائل » و « عشائر » إذا كانت هذه الجماعات صغيرة ، بيد أن هذه الألفاظ لا تطابق المصطلحات العربية تماماً . وتشمل اللغة العربية عدداً من الألفاظ التي تطلق على هذه الوحدات السياسية والاجتماعية ، إلا أن العرف قد جرى على أن يشار لأي قبيلة أو عشيرة باسم بني فلان .

وتكوين هذه القبائل الجاهلية لم يدرس بعد دراسة وافية على ضوء التقدم الحديث في علم الانسان

الاجتماعي . وتصور هذه القبائل في الروايات العربية على اعتبار أنها تكونت في الأصل بصلة النسب من جهة الذكور ، على الرغم من وجود بعض الاستثناءات لهذه القاعدة . وأي شخص لا يمت إلى جماعة ما بصلة نسب (غير صحيح أو صميم) كان يستطيع أن ينعم ببعض الامتيازات التي يتمتع بها أفراد الجماعة وبالحماية أولاً وقبل كل شيء . يستطيع أن ينعم بذلك بصفته « حليفاً » أو « جاراً » أو « مولًى » . وكان طرفا الحلف يتعاملان رسمياً على قدم المساواة ولكن عند ما يعيش فرد بين قبيلة أو عشيرة بصفته حليفاً فإنه ينزع إلى قبول مركز التابع الذي يعتمد على من يؤويه . ومن جهة أخرى كان الجوار يتضمن شيئاً من السلطان ، الموقوت على الأقل ، لمن يجير . وكان الجوار يمنح إما بصفة مؤقتة أو دائمة . وكان مركز المولى يكتسبه الرقيق عند عتقه . وكان الأرقاء يلحقون بالقبيلة والذكور من العرب يصبحون أرقاء إذا أسروا وهم أطفال في الغارات ، كما كان هناك أرقاء من الأحباش . وكان

الرجل يبعد من قبيلته إذا ما قتل قريبا له أو كان سلوكه ضارّاً بالقبيلة ، وقد يضرب على غير هدى (بصفته صعلوكاً) أو يلحق نفسه بقبيلة أخرى بصفته جاراً إلخ . . .

ومهما يكن من أمر فإن هناك أسباباً وجيهة تدعونا إلى الظن بأن الرأي المأثور الذي يذهب إلى أن أفراد القبيلة أو العشيرة بالمعنى الضيق كانوا يرتبطون بصلة النسب من جهة الأب ليس صحيحاً على إطلاقه في هذا الموضوع ، ولو أن بعض القبائل تكونت على هذا النحو . فهناك أولاً آثار عديدة تدل على وجود صلات نسب من جهة الأم بين بعض القبائل العربية في عهد محمد صلى اللّه عليه وسلم ، كما أن هناك بعض الحقائق التي توحي بأن النسب من جهة الأب حل محل هذا النسب . وعلى الرغم من أننا لا نعرف على وجه التحقيق مدى انتشار النسب من جهة الأم وما اقتضاه من حيث العمل فإن ثمة دليلاً كافيا يلقى ظلالاً من الشك حول قيمة سلسلة الأنساب الأبوية الخالصة وحدها التي وردت في مصنفات العلماء المسلمين

المتأخرين . ومن المحتمل ، فيما يبدو ، أن العلماء المتأخرين ، كانوا في بعض الحالات التي يسود فيها النسب من ناحية الأم ، لا يجدون نسباً من ناحية الأب لفرد في جماعة فيحتجون لذلك بقولهم انه لا بد أن يكون حليفاً ، ولعل هذا يفسر كيف كان زعيم عشيرة زهرة في مكة حليفاً (الأخنس بن شريك) .

وثانياً:نقول إنه قد احتج بأن بعض أسماء القبائل كانت في الأصل تطلق على جماعات قامت على أساس محلي أو سياسي ، وأن هذه الأسماء لا تدل على نسب مشترك ولعل هذا قد حدث في بعض الحالات ، ومن ثم فإن علماء الأنساب المتأخرين حولوا أسماء الجماعات إلى أسماء أجداد. ولكننا نجازف إذا عللنا جميع الأنساب بهذا الأسلوب . والأمر الذي يمكن أن يكون مؤكداً هو أن تكوين القبائل في الصحراء كان يتغير باستمرار ، فيزدهر بعضها ويصبح أكثر عدداً من أن يكون وحدة تعمل بكفاية ، فينشعب فرعين أو أكثر . والراجح أن هذا يفسر لِمَ

كان العرب يطلقون في عهد محمد صلى اللّه عليه وسلم أسماء على بعض الجماعات المؤلفة من عدة قبائل (انظر *Nallino* : الكتاب المذكور ، ص ٧٦) . ومن جهة أخرى نجد أن القبيلة التي لا ينبه ذكرها يتضاءل عدد أفرادها ثم تجد نفسها أمام ثلاثة أمور : أن تصبح تابعة لقبيلة أخرى أقوى منها ، أو تتحالف مع قبائل أخرى ضعيفة ، أو تندثر . وهكذا أصبحت بعض القبائل الضعيفة التي تعيش قرب مكة تعتمد إلى حد كبير على قريش . وتآلفت بعض القبائل الضعيفة وكونت عصبة عرفت باسم الأحابيش ولعل معناها « الجموع المختلطة » .

وكانت شئون القبيلة تبرم في «مجلس» من جميع أفرادها ، وكان من حق الجميع أن يتحدثوا ، وإن كانت كلمات الرجال المعترف لهم بالجاه هي التي يقام لها أكبر الوزن . وكان زعيم القبيلة أو رئيسها ، ويسمى السيد ، يبايع بهتاف الأعضاء له في المجلس . وكان ينحدر عادة من أعظم الأسر شرفاً ، ولكن لم يكن هناك قانون ينص على حق الابن الأكبر في زعامة

القبيلة . وكان من الضروري في ظروف الصحراء القاسية أن يكون الزعيم قادراً على القيادة في كفاية ، ولم يكن هذا مستطاعاً إذا كان قاصراً . وكان المنصب يفرض على السيد بعض الواجبات وبخاصة ما يرتبط بعلاقات القبيلة (أو العشيرة) بالقبائل الأخرى (او العشائر) . وكان في وسعه أن يعقد معاهدات ترتبط بها القبيلة ، وكان مسئولا عن افتداء الأسرى والنظر في دفع الدية . وقد جرى أيضاً على القول بأن له الحق في استضافة الغرباء ، وكان يرجى منه مساعدة الفقراء من أبناء قبيلته ، وفي مقابل هذه الواجبات كان له الحق في تسلم ربع أي غنيمة من الغنائم التي تؤخذ في الغارات . وكانت المنازعات التي تنشب بين أفراد جماعة تحال عادة إلى سيدهم . أما المنازعات بين أفراد الجماعات التي ليس لها سيد مشترك فإنها كثيراً ما كانت تؤدي إلى القتال ، بيد أنها كانت تحال أحياناً إلى حكم . وكان في مختلف أرجاء الجزيرة العربية رجل أو اثنان اشتهروا بحكمتهم وحيدتهم ، وكان يطلب إليهما في الغالب القيام بالتحكيم . وفيما عدا هذا

الإذعان الاختياري لحكم الحكَم ، والعضوية في حلف للقبائل ، فإن كل قبيلة من القبائل الكبرى كانت وحدة سياسية مستقلة . وكان سيد قبيلة قوية يفرض في بعض الأحيان سلطانه على عدد من القبائل الأخرى ، بحيث يضطرهم إلى الدخول معه في حلف وتنفيذ أوامره وذلك بقوة شخصيته وشجاعته في القتال ، بيد أن هذا كان يقابل بالاستياء ، وكان الحلف تنحل عقدته بزوال هذه الشخصية القوية .

د ـ النظرة الأخلاقية .

(د) النظرة الأخلاقية : كان البدو يعيشون في ظروف طبيعية قاسية كل القسوة . وكانت أسباب العيش تقصر في معظم الأوقات عن كفاية السكان . ومن ثم كانت نزعة قوية تتملك القوى لاغتصاب وسائل العيش ، وبخاصة الجمال ، من الضعيف . وقد أدى هذا إلى انتظام البدو في قبائل وعشائر على درجة كبيرة من التضامن الجماعي . وكانت الجماعات الكبرى أقوى بأساً ، بيد أن الظروف التي كانت تقتضي التفرق في بعض الأوقات سعياً إلى التماس المرعى للجمال جعلت من العسير على جماعات يزيد أفرادها عن عدد معين أن تعمل عمل الوحدات في كفاية . ومن هنا نشأت ـ كما قلنا من قبل ـ نزعة القبائل الكبرى الزاهرة إلى الانشعاب .

وكانت الغزوة أو الغارة للاستيلاء على الإبل تكاد أن تكون رياضة للبدو ، وكانوا يتجنبون إراقة الدماء . على أنه إذا تأصلت العداوة تغيرت صفة الإغارة وانتهت بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال ثم احتجازهم لافتدائهم بالأموال أو بيعهم في سوق الرقيق . وكانت شريعة العين بالعين والسن بالسن مسلّماً بها من الجميع ، وقد أفادت في كبح جماح كل من يفكر في قتل النفس دون جريرة أو لمجرد إرضاء نزوة ، لأن القبيلة كانت ترى أن التهاون في حماية أفرادها ومواليها أو التغاضي عن الثأر لهم من الأمور التي تمس شرفها . وكان في الحياة قصاص في الأيام الغابرة ، ولكن ظهرت في عهد النبي محمد صلى اللّه عليه وسلم نزعة إلى أن يستبدل بالقصاص دفع الدية ، وحاول الرسول أن يشجعها ، وجرت العادة أن تكون دية الرجل البالغ مائة بعير . ومهما يكن من شيء فقد كان ثمة إحساس في بعض الأحيان بأنه لا يخلق برجل أن يستبدل بالدم لبناً .

وكان البدو يعجبون بالصفات التي تكفل النجاح

في حياة شاقة يكابدونها في السهوب ، وكان الولاء لصلة الدم بين الجماعة له شأن كبير ، ويقتضي فيما يقتضيه مبادرة البدوي لنجدة قريبه ونصرته على أي غريب في أية مناسبة . وتقترن بهذه الصفة قوة البأس أو الحماسة التي تدل على « الشجاعة في القتال ، والصبر على المكروه ، والاصرار على الثأر ، وحماية الضعيف وتحدّي القوي .

وقام الشعراء بدور هام في حياة العرب أيام الجاهلية ، وكانت القصيدة تتضمن عادة إما « مفاخر » أي مدح الشاعر لقبيلته لما تتحلى به من قوة بأس وفضائل أخرى ؛ أو « مثالب » (وأيضاً هجاء) أي ذم الشاعر لأعدائه . وكان الاعتقاد السائد أن فضل إنسان على سواه أو الافتقار إلى هذه الصفة يورث إلى حد كبير . وكانت فعال بطل من الأبطال تدل على الصفات البطولية التي لأسرته وعشيرته وقبيلته . ومن ثم كان لما تتمتع به الجماعة من صيت قدر كبير من الاعتبار . وليس من شك في أن قدرة الشاعر على إقناع قبيلتهبجدار تها في احتلال مركز الصدارة بين القبائل

وإضعاف الروح المعنوية للعدو كانت عظيمة جدّاً . وربما كان للشعراء في الجزيرة العربية أيام الجاهلية سلطان يفوق سلطان الصحافة في الأزمنة الحديثة ، إذ كان العرب يحسون بأن فيهم شيئاً خارقاً أو سحريّاً .

وعلى الرغم من أن القوم كانوا يعوّلون كثيراً على النسب ، فإنه ليس من الواضح (كما لاحظنا فيما سبق) إلى أي حد كان تعويلهم على النسب من جهة الأب وإلى أي حد كان تعويلهم على النسب من جهة الأم . وهناك أربعة أنماط من الزواج كانت شائعة في الجاهلية يرويها البخاري . ويبدو أن اثنتين من هذه الزيجات تتعلقان بنظام للنسب من جهة الأم فيه المحل الأول ، على الرغم من أن البخاري يتحدث عن حكم خاص بتحديد النسب من جهة الأب . وعلاوة على هذا فإن المصادر تشير إلى أن رواية البخاري ليست محيطة . ومن المحقق أنه كان من الشائع أن تعيش المرأة مع أقربائها وأن زوجها كان « يزورها » فقط ليبقى معها فترات قصيرة كما يحدث مثلاً عندما تضرب قبيلتاهما خيامهما كل منهما قرب الأخرى .

هـ - الدين .

(هـ) الدّين : يدل الشعر الجاهلي على أن حركة شبه دينية نشأت بين القبائل البدوية تقوم على اعتقـاد بتفوق أرومة القبيلة ، وكان اعتبار الشرف أو الحسب هو القوة الدافعة لكثير من نشاطها . وبهذا المعنى يمكن القول ان دين البدو الحق هو الإنسانية القبلية . ولـم يكن الايمان بالقدر المنتشر بين العرب معتقداً دينياً بقدر ما هو معتقد يساير الواقع ، أي أنه كان إيماناً بأن العالم خلق هكذا حتى أن ابن آدم ، سواء كثر جهده أو قل ، في سعيه لدفع البلية تقف في بسبيله الظروف . غير أن الناس لم يعبدوا القدر باعتباره إلهاً .

وإلى جانب هذه العقيدة كان العرب يتشبثون بعدد منّ العبادات يتركز كل منها حول محراب خاص (انظر

مواد « الـلات » و « منـاة » . . . إلـخ) . وكان لبعض هذه المحاريب أهمية اجتماعية ، فقد كان حولها حَرم ، على حين كان نظام الشهر الحرام تهيمـن عليه الكعبـة في مكة . ولا شك أن هذه الأشهـر الحـرم والأماكن المقدسة ، التي تتوقف فيها إلى حين المعارك من أجل الثأر ، قد أتاحت للكثيرين من البدو الاجتماع لتبادل التجارة ولأغراض أخـرى . ومـهما يكـن من شيء فإن هذه العبادات ، فيما يبدو ، لم يكن لهـا في جملتها إلا أهمية دينية ضئيلة في حياة البدو حقاً .

وكانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً في الجزيرة العربية عندما بدأ النبي محمد صلىَّ اللّـه عليـه وسلـم يبشر بدعوته ، وكانت بعض جماعات البدو على الأقل تدين بالمسيحية . وكذلك وجدت اليهـودية . ولعـل بعض من أطلق عليهم اسم « يهـود » في السجـلات التاريخية كانوا على الأرجح من العرب الذين اعتنقـوا اليهودية ، ولكن على الرغم من الروابط الوثيقة التـي كانت تربطهم بالبدو فإنه لم يكن بينهم ، فيما يبدو ، بدوي واحد .

الفهرس